جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

من بلاغة الحوار في القصص القرآني في سورة الأعراف

الدكتورة

فاطمة محمد النجار

قسم البلاغة والنقد- كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر- فرع البنات بالقاهرة

العدد الثاني والعشرون
للعام ١٤٤٠هـ / ٢٠١٨م
الجزء السابع

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٨م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050

Abstract

Of the wise and eloquent methods used by the Holy Quran, the method of dialogue, debate and discussion in order to reach the truth, and establish evidence of the oneness of God, and the sincerity of the honorable messengers as they report their Creator.

The Holy Quran draws colors from the dialogues that took place between the apostles and their people, and when we are able to see them, we see the apostles speaking only with the truth that teaches the lies and the truth that vanishes falsehood.

This research is presented in the eloquence of the dialogue in the Quranic stories. The dialogues that took place between the distinguished apostles and their peoples were mentioned in the Holy Quran in many places. In this research we will suffice with examples, which give us a clear picture of what has been between them.

I mentioned the conversations between Noah, Houd, Saleh, Lot and Shu'ib - peace be upon them - and among their people.

And the dialogue between the Creator - Almighty - and his creatures of the honorable messengers, and between him and Adam - peace be upon him - and between him and the devil.

And dialogue between the people of Paradise, and the people of fire, and owners of customs.

I have divided the Qur'anic verses according to their themes, arranged in the Holy Qur'an.

And relied on the analytical approach of the verses to reveal their rhetorical secrets, the research came in the introduction and the preparation of the chapters and three and a conclusion and indexes.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين... وبعد.

من الأساليب الحكيمة والبليغة التي استعملها القرآن الكريم، أسلوب الحوار والجدال والمناقشة من أجل الوصول إلى الحق، وإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعلى صدق الرسل الكرام فيما يبلغون عن خالقهم.

ولقد ساق القرآن الكريم ألوانًا من المحاورات التي دارت بين الرسل وأقوامهم، وعندما نتدبرها نرى الرسل فيها لا ينطقون إلا بالصدق الذي يدمغ الأكاذيب، وبالحق الذي يزهق الباطل.

وهذا البحث أقدمه في بلاغة الحوار في القصص القرآني، فالمحاورات التي دارت بين الرسل الكرام وبين أقوامهم، وردت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، ونحن في هذا البحث سنكتفي بنماذج منها، تعطينا صورة واضحة لما دار بينهم من أقوال ومجادلات في سورة الأعراف.

وقد ذكرت منها المحاورات التي دارت بين نوح وهود وصالح ولوط وشعيب -عليهم السلام- وبين أقوامهم.

والمحاورات بين الخالق -عز وجل- وبين مخلوقاته من الرسل الكرام، وبينه وبين آدم -عليه السلام- وبينه وبين إبليس.

وحوار بين أهل الجنة، وأهل النار، وأصحاب الأعراف.

وقد قمت بتقسيم الآيات القرآنية على حسب موضوعاتها، بترتيبها في السورة الكريمة.

واعتمدت على المنهج التحليلي للآيات للكشف عن أسـرارها البلاغيـة، فجاء البحث في مقدمة وتمهيد وفصول ثلاثة وخاتمة وفهارس.

هذا وأسأل الله أن يوفقني لما يحبه ويرضاه، وأن يتقبل مني هذا العمـل خالصًا لوجهه الكريم، والحمد لله رب العالمين و صلى الله علـى سـيدنا محمـد وعلى آله أجمعين.

التمهيد

المقصود من الجدل أو المجادلة أو المحاورة: إلزام الخصم ، والتغلب عليه، عن طريق إقامة الحجة ، والإتيان بالدليل الواضح ، والبرهان الساطع.

ويمتاز أسلوب الحوار والجدال في القرآن الكريم باتساع دائرته، ووضوح قضاياه، وشموله لما لا يحصى من المسائل.(١)

والقرآن الكريم قد استعمل ألوانًا من الأساليب البليغة في المحاورات التي دارت بين الرسل –عليهم الصلاة والسلام– وبين أقوامهم، والتي دارت حول وحدانية الله –عز وجل– وذلك بالأدلة الساطعة والحجج الواضحة ، فقابلوا كل ذلك بالتكذيب والجهالة ، التي أدت بهم إلى الهلاك.

كما ساق نماذج للمحاورات التي دارت بين الله سبحانه وتعالى وبين الملائكة المقربين، وبينه وبين آدم –عليه السلام– وبينه وبين الشيطان الرجيم.

ومن صور المحاورات التي حكاها القرآن الكريم في سورة الأعراف، نرى حوارًا يدور بين أهل الجنة وأهل النار، كما نرى حوارًا ثانيًا يدور بين أصحاب الأعراف وبين أهل الجنة وأهل النار.

وهى محاورات فيها من الأساليب الحكيمة، والعظات الجليلة والارشادات القويمة لقوم يعقلون.

---

(١) انظر أدب الحوار في الإسلام د/محمد سيد طنطاوي ٤.

الفصل الأول: "حوار بين الخالق – عز وجل - وبعض مخلوقاته"

حوار بين الخالق -عز وجل- و إبليس

لقد ساق لنا القرآن الكريم، صورًا متعددة ، لمحاورات ومجادلات ومعارضات ، تجلى فيها افساح المجال في هذا المقام، حتى لمن جاهر بالمعصية لله –تعالى– ألا وهو إبليس ، الذي فسق عن أمر ربه، وحسد آدم على ما أتاه الله من فضله.(١)

قال تعالى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ(١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ(١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ(١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ(١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ". {الأعراف: ١١-١٨}

فقوله تعالى: " وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ" {الأعراف :١١}

" الآية معناها التنبيه على موضع العبرة والتعجب من غريب الصنعة و إسداء النعمة، فبدأ بالخلق الذى هو الإيجاد بعد العدم، ثم بالتصوير فى هذه البنية المخصوصة للبشر"(٢).

---

(١) أدب الحوار د/ محمد سيد طنطاوي ٣١.

(٢) تفسير ابن عطية ٣٧٧/٢.

ومسألة الخلق سبق أن تقدمت في سورة البقرة: خلــق آدم، والشــيطان، والقضية تتوزع على سبع سور، في سبعة مواضع موجودة في ســورة البقــرة، وسورة الأعراف، وسورة الحجر، وسورة الإسراء، وسورة الكهف، وسورة طه، وسورة ص، إلا أن القصة في كل موضع لها لقطات متعددة، فهنا لقطة، وهنــاك لقطة ثانية، وتلك لقطة ثالثة، وهكذا، لأن هذه نعمة لا بد أن يكررها الله، لتستقر في أذهان عباده، لأنه إذا أراد استحضار النعم و التنبيه عليها في أشــياء فهــو يكررها(١).

وقوله تعالى: " وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ " عطف على جملة :" وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ " {الأعراف:١٠}، فالجملتان خبريتان- لفظًا ومعنى- والتناسب ظــاهر بينهمــا، وتأكيد الخبر باللام وقد، للتذكير والتأكيد على نعمة الخلق والإيجاد.

وقوله: " خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ " إيجاز بحذف المضاف أي: خلقنــا أبــاكم وصورنا أباكم ،والخلق: الإيجاد وإبراز الشيء إلى الوجود، وهذا الإطــلاق هــو المراد منه عند إسناده إلى الله تعالى أو وصف الله به . والتصوير جعل الشــيء صورة، والصورة هى الشكل الذي يشّكل به الجسم كما يشّكل الطين بصورة نوع من الأنواع.

وعطفت جملة صورناكم بحرف " ثُمَّ " الدالة على تراخي رتبة الخلق؛ لأنّ التصوير حالة كمال في الخلق بأن كان الإنسان على الصــورة الإنســانية حســنًا وشرفًا.

وقوله تعالى: " لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ" إشارة إلى أنه لم يقدر له أن يكــون من الطائفة الساجدين، إي إنتفى سجوده انتفاء لا رجاء في حصوله بعد، وقد علم أنه أبى السجود إباًء وذلك تمهيدًا لحكاية السؤال والجواب فى قوله " قَالَ مَا مَنَعَكَ

(١) انظر تفسير الشعراوى ٤٠٥٦/٥١، مفاتيح الغيب ٧/١٣.

أَلّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ " { الأعراف:١٢} ابتداء المحاورة، لأن ترك إبليس السجود لآدم بمنزلة جواب عن قول الله : " اسْجُدُوا لِآدَمَ"، فكان بحيث يتوجه إليه استفسار عن سبب تركه السجود.(١)

"قال"،" استئناف مسوق للجواب عن سؤال نشأ من حكاية عدم سجوده، كأنه قيل: فماذا قال الله تعالى حينئذ؟ وبه يظهر وجه الإلتفات إلى الغيبة إذ لا وجه لتقدير السؤال على وجه المخاطبة، وفيه فائدة أخرى هى الإشعار بعدم تعلق المحكيّ بالمخاطبين كما في حكاية الخلق والتصوير".(٢)

قال ابن عاشور: "وضمير: (قال) عائد إلى معلوم من المقام، أي: قال الله تعالى بقرينة قوله: (ثم قلنا للملائكة اسجدوا)، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: قلنا، فكان العدول إلى ضمير الغائب التفاتًا، نكتته تحويل مقام الكلام، إذا كان المقام مقام أمر للملائكة ومن في زمرتهم فصار مقام توبيخ لإبليس خاصة".(٣)

وقوله تعالى:" مَا مَنَعَكَ أَلّا تَسْجُدَ" "ظاهر الآية يقتضى أنه تعالى طلب من إبليس ما منعه من ترك السجود، وليس الأمر كذلك، فإن المقصود طلب ما منعه من السجود."(٤)

و"منعك" معناه صدك وكفك عن السجود، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: ما منعك أن تسجد.(٥)

"نحن حين نحلل هذا النص، نجد قوله: " مَا مَنَعَكَ" أى ما حجزك، وقد أورد القرآن هذه المسألة بأسلوبين، فقال الحق مرة: " مَا مَنَعَكَ أَلّا تَسْجُدَ"وقال

---

(١) التحرير و التنوير ٣٥/٨.
(٢) تفسير أبى السعود ٢١٦/٣.
(٣) التحرير والتنوير ٣٥/٨.
(٤) مفاتيح الغيب ١٠/١٣.
(٥) التحرير و التنوير ٤٠/٨.

مرة أخرى: "مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ" من الآية ٧٥ سورة ص، وهذا يعني أن الأسلوب الأول جاء ب "لا" النافية، وقوله: "مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ" كلام سليم واضح، يعني: ما حجزك عن السجود، لكن " مَا مَنَعَكَ أَلّا تَسْجُدَ"هي التى تحتاج لوقفة."(١)

لذلك قال العلماء: إن لا نافية ، ووجودها يؤذن بفعلٍ مقدَّر دل عليه منعك ؛لأن المانع من شيء يدعو لضده، فكأنه قيل: "ما منعك أن تسجد فدعاك إلى أن لا تسجد"، فإما أن يكون منعك مستعملاً في معنى دعاك، على سبيل المجـــاز، و (لا) هى قرينة المجاز.

وهذا تأويل السكاكى في "المفتاح" في فصل المجاز اللغوى، وقريب منـــه لعبد الجبار فيما نقله الفخر الرازى عنه وهو أحسن تأويلًا، حيث قـــال: ذكـــر الله المنع وأراد الداعي، فكأنه قال: ما دعاك إلى أن لا تسجد؟ لأن مخالفـــة أمـــر الله تعالى حالة عظيمة يتعجب منها ويسأل عن الداعي إليها.

وإما أن يكون قد أريد الفعلان- ما منعك، ما دعاك- فذكر أحدهما وحذف الأخر، وأشير إلى المحذوف بمتعلقه الصالح له فيكون من إيجاز الحـــذف، وهـــو اختيار الطبرى ومن تبعه.(٢)

قال الشعراوى: "مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ" كأنه كان عنده تهيؤ للسجود، فجاءت قوة أقوى منه ومنعته وحجزته وحالت بينه و بين أن يسجد، لكن ذلك لم يحدث، وتأتى "منع" للأمتناع بأن يمتنع هو عن الفعل وذلك بِأن يقنعه غيره بترك السجود فيقتنع و يمتنع، وهناك فرق بين ممنوع، وممتنع؛ فممنوع هى في "مَا مَنَعَـــكَ أَنْ تَسْجُدَ" وممتنع تعني أنه أمتنع من نفسه ولم يمنعه أحد ولكنه أقنعـــه، وإن كـــان

(١) تفسير الشعراوى ٤٠٦٥/٥١.

(٢) انظر التحرير و التنوير٨ /٤٠، مفا تيح الغيب ١٠/١٣

المنع من الامتناع فالأسلوب قد جاء ليؤكد المعنى الفعلي وهو المنع عن السجود، وهذا هو السبب فى وجود التكرار فى القرآن.(١)

وقيل: " قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ" جملة مستأنفة كأنه قيل: فماذا قال له الله؟ ولا زائدة للتوكيد، وما استفهامية تدل على التقريع والتوبيخ."(٢)

****

قال تعالى: " قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ" { الأعراف:١٢}

" "قال" استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية التوبيخ، كأنه قيل فماذا قال اللعين عند ذلك؟ فقيل: قال " أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ".(٣)

ففصل: " قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ" لوقوعه على طريقة المحاورات. وجملة: " خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ" بيانٌ لجملة:" أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ" فلذلك فُصلت؛ لأنها بمنزلة عطف البيان من المبين(٤) ، فجملة " أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ" فيها خفاء وإبهام فسرته الجملة الثانية " خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ" فترك العطف لقوة الربط بينها، لأن عطف البيان لا يعطف على متبوعه.

****

قال تعالى: "قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ" {الأعراف:١٣}

---

(١) تفسير الشعراوى ٤٠٦٤/٥١.

(٢) انظر البحر المحيط ١٧/٥، روح البيان ١٤٠/٣، فتح البيان فى مقاصد القرآن ٣١١/٤، تفسير ابن عطيه ٣٧٧/٢.

(٣) تفسير أبى السعود ٢١٦/٣.

(٤) التحرير والتنوير ٤١/٨.

"قالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا" فلا شك أن قائل هذا القول هو الله تعالى، وقيل هذه المناظرة بين الله سبحانه وبين إبليس فى سورة "ص" على سبيل الأستقصاء(١)، و"قال" استئناف كما سلف، والفاء فى قوله تعالى "فَاهْبِطْ مِنْهَا" لترتيب الأمر بالهبوط على جواب إبليس، فهو من عطف كلام متكلم على كلام متكلم آخر، لأن الكلامين بمنزلة الكلام الواحد في مقام المحاورة.

والفاء دالة على أن أمره بالهبوط مُسَبَّبُ عن جوابه، أي فاهبط من الجنة، والإضمار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها.

ودل قوله: " فَمَا يَكُونُ لَكَ "على أن ذلك الوصف لا يغتفر منه، لأن النفي بصيغة "ما يكون لك" كذا أسدُّ من النفي ب (ليس لك كذا).

وقوله " فَاخْرُجْ " تأكيدٌ للأمر بالهبوط متفرّعً على علته، وأعيدت الفاء مع الجملة الثانية لزيادة تأكيد تسبب الكِبْرِ في إخراجه من الجنة(٢).

وقوله: "إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ" تعليل للأمر بالخروج مشعر بأنه لتكبره، أي من الأذلاء وأهل الهوان.(٣)

ويجوز أن تكون مستأنفة استئنافًا بيانيًا(٤)، إذا كان المراد من الخبر الإخبار عن تكوين الصغار فيه، بجعل الله تعالى إياه صاغرًا حقيرًا حيثما حل، ففصلها عن التي قبلها للاستئناف.(٥)

---

(١) مفاتيح الغيب ١٣/١٤.

(٢) انظر تفسير أبى مسعود ٣/٢١٧، التحرير والتنوير ٨/٤٤، فتح البيان فى مقاصد القرآن ٤/٣١٢.

(٣) تفسير أبى السعود ٣/٢١٧، انظر فتح البيان فى مقاصد القرآن ٤/٣١٢.

(٤) شبه كمال الاتصال هو الذى يسمى "الاستئناف البيانى" ومعناه استئناف جواب به يتم الكلام المنبثق عن الجملة السابقة، معانى التراكيب د/ عبد الفتاح لاشين٢/١٤٤.

(٥) التحرير والتنوير ٨/٤٤.

فصلت جملة " إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ" عن جملة " فَاخْرُجْ" لأن الثانية وقعت جوابًا لسؤال أثارته الجملة الأولى وهو: كيف أخرج؟ فكان الجواب: "إنك من الصاغرين" من أهل الصغار والذل و الهوان.

****

قال تعالى: " قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ " {الأعراف: ١٤-١٥}

قال استئناف مبنى على سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل: فماذا قال اللعين بعد ما سمع هذا الطرد المؤكد، فقيل قال " أَنْظِرْنِي" أي أمهلني ولا تمتني (إلى يوم يبعثون) أي: آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم.(١)

بعد طلب إبليس النظرة، قال الله تعالى: " إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ " أي: إنك من المخلوقات الباقية.

وقد أفاد التأكيد بإن والإخبار بصيغة " مِنَ الْمُنْظَرِينَ" أن إنظاره أمر قد قضاه الله وقدره من قبل سؤاله، فجواب الله تعالى لإبليس إخبار عن أمرٍ تحقق، وليس إجابة لطلبه.(٢)

قال تعالى: " قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ" "قالَ" استئناف مبني على سؤال كأنه قيل :فماذا قال الله تعالى بعد طلب إبليس النظره؟ فقيل قال:"إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ".

وورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ما سأله الأخرين على وجه يشعر بأن السائل تبعٌ لهم في ذلك ،صريحٌ في أنه إخبارٌ بالإنظار المقدر لهم أزلًا ،لا إنشاء خاص به إجابة لدعائه.

(١) تفسير أبى مسعود ٢١٧/٣، فتح البيان فى مقاصد القرآن ٣١٣/٤.
(٢) انظر التحرير والتنوير ٤٥/٨.

وقد ترك التوقيت للإيجاز، ثقة بما وقع في سورة الحجر وسورة ص، كما ترك ذكر النداء والفاء في الاستنظار والانظار تعويلًا على ما ذكر فيها بقوله عز وجل: " قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ " {الحجر: ٣٦-٣٨}.

قال تعالى: " قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ " {ص: ٧٩-٨١} وفي انظاره إبتلاء للعباد، وتعريض للثواب ،إن قلت لا ريب في أن الكلام المحكيَ له عند صدوره عن المتكلم حالة مخصوصة، تقتضي وروده على وجه خاص من وجوه النظم، بحيث لو أخل بشيء من ذلك سقط الكلام عن رتبة البلاغة البتة.

فالكلام الواحد المحكي على وجوه شتى، إن اقتضى الحال وروده على وجه معين من تلك الوجوه الواردة عند الحكاية، فذلك الوجه هو المطابق لمقتضى الحال، والبالغ إلى رتبة البلاغة دون ما عداه من الوجوه.

وههنا فحيث اقتضى مقام الحكاية مجرد الإخبار بالاستنظار والإنظار، سيقت الحكاية على نهج الإيجاز والاختصار، من غير تعرض لبيان كيفية كل واحدٍ منهما عند المخاطبة والحوار.(١)

****

قال تعالى: " قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ " {الأعراف: ١٦} قوله " قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ" الجملة مستئنافة، والفاء للترتيب والتسبب على قوله: "إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ " {الأعراف:١٣}، ثم قوله :" إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ " {الأعراف:١٥}.

(١) انظر تفسير أبى السعود ٣/٢١٧-٢١٨.

والباء فى قوله: " فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي " للسببية، وهى ظرفٌ مستقر واقع موقع الحال من فاعل لأقعدن، أي: أقسم لهم حال كون ذلك مني بسبب إغوائك إياى، واللام في لأقعدن لام القسم :قصدُ تأكيد حصول ذلك وتحقيق العزم عليه.(١)

" فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي" أي بعد أن أمهلتني لاجتهدن في إغوائهم، والباء متعلقة بفعل القسم المحذوف، لا بأقعدن، فإن اللام تصد عنه، وقيل الباء للقسم: لأقعدن لهم ترصدًا لهم(٢)، ولما كان (الباء) باء القسم كانت (اللام) جواب القسم و (ما) بتأويل المصدر "وأغويتني" صلتها .(٣) "والإغواء الإضلال عن المنهج القويم، والهمزة فيه للصيرورة أي بسبب أن صيرتنى غاويًا ضالًا عن الهدى محرومًا من الرحمة لأجلهم، أقسم بعزتك لأقعدن لهم، أي: لآدم وذريته ترصدًا لهم.

فالقعود كناية عن الاجتهاد في إغواء بنى آدم.(٤)

وقيل: "القعود كناية عن الملازمة، ووجه الكناية هو أن ملازمة المكان تستلزم الإعياء من الوقوف عنده، فيقعد الملازم طلبًا للراحة.

ولما ضمن فعل: "لأقعدن" معنى الملازمة انتصب "صراطك "على المفعولية، أو على تقدير فعل تضمنهُ معنى لأقعدن تقديره: "فامنعن صراطك أو فأقطعن عنهم صراطك"، واللام في لهم للأجل ، وإضافة الصراط إلى اسم الجلالة على تقدير اللام أي :الصراط الذي هو لك أي :الذي جعلته طريقًا لك ، والطريق لله هو العمل الذي يحصل به ما يرضي الله بامتثال أمره ، وهو فعل الخيرات ، وترك السيئات.

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٤٧/٨، مفاتيح الغيب ١٨/١٣، فتح البيان فى مقاصد القرآن ٣١١/٤، درج الدررفى تفسير الآى والسور ٦٤٤/١.

(٢) تفسير البيضاوى ٧/٣، انظر البحر المحيط ٢٠/٥، روح البيان ١٤٢/٣، انظر الكشاف ٧٢/٢.

(٣) مفاتيح الغيب ١٨/١٣، وانظر درج الدرر في تفسير الآي والسور ٦٤٥/١.

(٤) روح البيان ١٤٢/٣.

فالكلام تمثيل هيئة العازمين على فعل الخير، وعزمهم عليه، وتعرض الشيطان لهم بالمنع من فعله، بهيئة الساعي في طريقٍ إلى مقصدٍ ينفعه وسعيه إذا اعترضه فى طريقه قاطع طريق منعه من المرور فيه.

والضمير في لهم ضمير الإنس الذين دل عليهم مقام المحاورة، التي اختصرت هنا اختصارًا دعا إليه الاقتصار على المقصود منها، وهوالامتنان بنعمة الخلق، والتحذير من كيد عدو الجنس".(١)

قال الفخر الرازى:"قوله تعالى: " لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ " لاخلاف بين النحويين أن (على) محذوف والتقدير: "لأقعدن لهم على صراطك المستقيم"، قال الزجاج: مثالة قولك ضرب زيد الظهر والبطن، والمعنى على الظهر والبطن، وإلغاء كلمة (على) جائز، لأن الصراط ظرف في المعنى، فاحتمل ما يحتمله لليوم والليلة، في قولك أتيك غدًا وفي غد".(٢)

****

قال تعالى:" ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ " {الأعراف:١٧}

"الظاهر أن إتيانه من هذه الجهات كناية عن وسوسته وإغوائه له والجد فى إضلاله من كل وجه".(٣)

"وجملة ثم لأتينهم "ثُمَّ" فيها للترتيب الرُتبِيّ ، وهو التدرج في الأخبار إلى خبر أهم ؛لأن مضمون الجملة المعطوفة أوقع في غرض الكلام من مضمون

(١) التحرير والتنوير ٤٨/٨.
(٢) مفاتيح الغيب ١٨/١٣.
(٣) البحر المحيط ٢١/٥، انظر تفسير ابن عطية ٣٨٠/٢.

الجملة المعطوف عليها؛ لأن الجملة الأولى أفادت الترصد للبشر بالإغواء، والجملة المعطوفة أفادت التهجم عليهم بشتى الوسائل.

وكما ضرب المثل لهيئة الحرص على الإغواء بالقعود على الطريق، كذلك مُثلت هيئة التوسل إلى الإغواء بكل وسيلة بهيئة الباحث الحريص على أخذ العدو، إذ يأتيه من كل جهةٍ حتى يصادف الجهة التي يتمكن فيها من أخذه ، فهو يأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، حتى تخور قوَّة مدافعته، فالكلام تمثيل.

وليس للشيطان مسلك للإنسان إلا من نفسه وعقله بإلقاء الوسوسة في نفسه، وليست الجهات الأربع المذكورة بحقيقة ، ولكنها مجاز تمثيلي بما هو متعارفٌ في محاولة الناس ومخاتلتهم، ولذلك لم يذكر في الآية الإتيان من فوقهم ومن تحتهم إذ ليس ذلك من شأن الناس في المخاتلة ولا المهاجمة."[١]

ولأن أكثر الناس لا تتذكر شكر المنعم عليهم، فيجيد الشيطان غوايتهم، ولذلك يقول الحق تذييلًا للآية: " وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ " من الآية ١٧ سورة الأعراف.[٢]

****

قال تعالى: " قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ " {الأعراف:١٨}

والمعنى: أن إبليس لما وعد بالإفساد الذي ذكره، خاطبه الله تعالى بما يدل على الزجر والإهانة والطرد والاحتقار.[٣]

---

(١) التحرير والتنوير ٤٩/٨.
(٢) تفسير الشعراوى ٤٠٧٦/٥١.
(٣) انظر مفاتيح الغيب ٢٦/١٣.

وقوله: " لَمَنْ" "بفتح اللام على أنها لام القسم، وتسمى هذه اللام مُوطئة للقسم لأنها وطأت الجواب للقسم المحذوف ،أي مهدته له، وجواب القسم " لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ".(١)

وقوله: " لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ" كناية عن بني آدم ، "لأنه تعالى حين قال " وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ" كان مخاطبًا لولد آدم فرجعت الكناية إليهم".(٢)

ومعنى " مِنْكُمْ" منك وممن تبعك، فغلب الخطاب على الغيبة(٣)، فغلب الحاضر وهو إبليس على الغائب وهو الناس.

****

حوار بين الخالق - عز وجل- وآدم عليه السلام وإبليس

وإليك محاورة أخرى دارت بين آدم –عليه السلام – وبين خالقه– سبحانه وتعالى – وبين آدم وإبليس:

قال تعالى: " وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ(٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ(٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ(٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن ٣١٦/٤، انظر مفاتيح الغيب ٢٦/١٣، تفسير أبي السعود ٢١٩/٣، الكشاف ٧٣/٢، البحر المحيط ٢١/٥.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦/١٣.

(٣) البحر المحيط ٢٠/٥، انظر تفسير أبي السعود ٢١٩/٣، تفسير البيضاوي ٧/٣.

الْخَاسِرِينَ(٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ(٢٥)"{الأعراف:١٩-٢٥}

فقوله تعالى:" وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ " {الأعراف:١٩}

الواو من قوله: ويا آدم عاطفة على جملة: " اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا" {الأعراف:١٨}، فهذه الواو من المحكي لا من الحكاية، فالنداء والأمر من جملة المقول المحكي يقال: أي قال الله لإبليس اخرج منها، وقال لآدم ويا آدم اسكُن، وهذا من عطف المتكلم بعض كلامه على بعض، إذا كان لبعض كلامه اتصال وتناسب مع بعضه الآخر.

(ويا آدم) وقلنا يا آدم ، والنداء للإقبال على آدم والتنويه بذكره في ذلك الملأ.(١)

(ويا آدم)فيه إيجاز بالحذف أي: قلنا يا آدم.

وقوله: (فكلا) العطف بالفاء للتعقيب، ليعقب الأكل من ثمار الجنة بسرعة.

قال ابن عاشور: "والعطف بالفاء أفاد أن الله تعالى أذن لآدم بأن يتمتع بثمار الجنة عقب أمره بسكنى الجنة، وتلك منة عاجلة تؤذن بتمام الإكرام".(٢)

وقوله "وَلَا تَقْرَبَا" لم يقل لهما: لا تأكلا، بل قال: " لَا تَقْرَبَا" ؛لأن القربان مظنة أنه يؤدى إلى الغواية ويدفع إليها، وهو قد أكل منها لأنه جاء ناحيتها وأقترب منها، فلو أنهما لم يقربا ما كانت الشجرة تغريهما بأي منظر(٣).

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٥٣/٨.

(٢) المرجع السابق ٥٤/٨.

(٣) انظر تفسير الشعراوي ٤٠٨٢/٥١.

وقال ابن عاشور:" ولا تقربا هذه الشجرة أشدّ في التحذير من أن ينهى عن الأكل منها، لأن النهي عن قربانها سدٌّ لذريعة الأكل منها".(١)

****

قال تعالى: " فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ " {الأعراف: ٢٠-٢١}

" فَوَسْوَسَ" كانت وسوسة الشيطان بقرب نهي آدم عن الأكل من الشجرة، فعَّبر عن القرب بحرف التعقيب إشارة إلى أنّه قربُ قريبٌ، لأن تعقيب كل شيء بحسبه.(٢)

واللام في "لِيُبْدِيَ" لام عاقبة، وذلك لأن الشيطان لم يقصد بالوسوسة ظهور عوراتهما، ولم يعلم أنهما إن أكلا من الشجرة بدت عوراتهما، وإنما كان قصده أن يحملهما على المعصية فقط.(٣)

ويجوز أن تكون لام العلة الباعثة ،إذا كان الشيطان يعلم ذلك بالإلهام أو بالنظر، فالشيطان وسوس لآدم وزوجه بغرض إيقاعهما في المعصية ابتداءً. والإبداء ضد الإخفاء، فالإبداء كشف الشيء وإظهاره، ويطلق مجازاً على معرفة الشيء بعد جهله يقال: بدا لي أن أفعل كذا.

وأسند إبداء السوآت إلى الشيطان، لأنه المتسبب فيه على طريقة المجاز العقلي، لعلاقة السببية.

---

(١) التحرير والتنوير ٥٤/٨.
(٢) المرجع السابق ٥٧/٨.
(٣) انظر مفاتيح الغيب ٢٩/١٣.

والسوآت جمع سوأة وهى اسم لما يسوء ويتعير به من النقائض، فتكون صيغة الجمع على حقيقتها، والسوآت حينئذ مستعمل في صريحه، ويجوز أن تكون جمع السوأة، المكني بها عن العورة.

وعطف جملة: " وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا" على جملة فوسوس يدل على أن الشيطان وسوس لهما وسوسة غير قوله: ما نهاكما .. إلخ، ثم ثنى وسوسته بأن قال ما نهاكما، ولو كانت جملة :"ما نهاكما "إلى آخرها بيانًا لجملة فوسوس لكانت جملة: " وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا" بدون عاطف، لأن البيان لا يعطف على المُبَينَّ، وفي هذا العطف إشعارٌ بأن آدم وزوجه ترددا في الأخذ بوسوسة الشيطان فأخذ الشيطان يراودهما.

وقد أوهم إبليس آدم وزوجه أنهما متمكنان أن يصيرا ملكين من الملائكة؛ إذا أكلا من الشجرة، وقيل المراد التشبيه البليغ أي: إلَّا أن تكونا في القرب والزلفى كالملكين.(١)

" وَقَاسَمَهُمَا" أي حلف لهما بما يوهم صدقه، والمقاسمة مفاعلة من أقسم إذا حلف، حذفت منه الهمزة عند صوغ المفاعلة، كما حذفت في المكارمة، والمفاعلة هنا للمبالغة في الفعل، وليست لحصول الفعل من الجانبين ، ونظيرُها عافاه الله.(٢)

وقال الزمخشري: "كأنه قال لهما: أقسم لكما إني لمن الناصحين، وقالا له: أتقسم بالله إنك لمن الناصحين، فجعل ذلك مقاسمة بينهم، أو أقسم لهما بالنصيحة

(١) التحرير والتنوير ٥٨/٨ بتصرف.
(٢) المرجع السابق٦٠/٨، انظر تفسير أبي السعود ٢٢٠/٣، انظر تفسير البيضاوي ٩/٣، روح البيان ١٤٠/٣، البحر المحيط ٢٦/٥.

وأقسما له بقبولها، أو أخرج قسم إبليس على المفاعلة، لأنه اجتهد فيه اجتهاد المقاسم."[١]

" وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا" تأكيد إخباره عن نفسه بالنصح لهما بثلاث مؤكدات دليل على مبلغ شك آدم وزوجه فى نصحه لهما، وما رأى عليهما من مَخَائِل التردد في صدقه، وإنما شكا في نصحه لأنهما وجدا ما يأمرهما مخالفًا لما أمرهما الله، الذي يعلمان إرادته بهما الخير علمًا حاصلًا بالفطرة.[٢]

وأكد الخبر بالقسم وبإن واللام للتأكيد على صدقه، وهو من الضرب الإنكاري.

****

قال تعالى: " فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ " {الأعراف: ٢٢}

" فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ" يريد فغرهما بقوله وخدعهما بمكره.

ومعنى "فَدَلَّاهُمَا" أقْدَمَهُمَا ففعلًا فعلًا يطمعان به في نفع فخابا فيه، وأصل دلّي ، تمثيلُ حال من يطلب شيئًا من مظنتة فلا يجدهُ بحال من يُدلّي دلوه أو رجليه في البئر ليستقي من مائها فلا يجد فيها ماء ، فيقال: دلّى فلانٌ: يقال دَلَّى كما يقال أدلى.[٣]

(١) الكشاف ٧٥/٢.
(٢) التحرير و التنوير ٦٠/٨.
(٣) التحرير والتنوير ٦١/٨، انظر مفاتيح الغيب ٣٣/١٣.

قال ابن عطية: "فَدَلّاهُمَا" "استعارة من الرجل يدلي آخر من هوة بحبل قد أرم بسبب ضعيف يغتر به فإذا تدلى به وتورك عليه انقطع به فهلك، فيشبه الذي يغر بالكلام حتى يصدقه فيقع في مصيبة بالذي يدلي في هوة بسبب ضعيف."(١)

" فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا" أي فلما أكلا من الشجرة ظهرت عوراتهما.

" وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ"

" يَخْصِفَانِ" ورقة فوق ورقة على عوراتهما ليستترا بها، فالخصف حقيقته تقوية الطبقة من النعل بطبقة آخرى لتشتدَّ، ويستعمل مجازًا مرسلًا في مطلق التقوية للخرقة والثوب، ومنه ثوبٌ خصيف أي مخصوفٌ أي غليظ النسيج لا يشفُّ عما تحته، فمعنى يخصفا يضعان على عوراتهما الورق بعضه على بعضٍ كفعل الخاصف، وضعا ملزقًا متمكنًا.(٢)

وقوله تعالى: " وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا" أي ناداهما الله بطريق العتاب والتوبيخ.(٣)

قال ابن عاشور:" وقد تأخر نداء الرب إياهما إلى أن بدت لهما سوآتهما، وتَخيَّلًا ستر عوراتهما، ليكون للتوبيخ وقع مكن من نفوسهما، حين يقع بعد أن تظهرلهما مفاسد عصيانهما، فيعلما أن الخير في طاعة الله، وأن عصيانه ضُرًّا.(٤)

و" أَلَمْ أَنْهَكُمَا "معمول لقول محذوف، أي: وقال أو قائلًا " أَلَمْ أَنْهَكُمَا" وهو استفهام معناه العتاب على ما صدر منهما.

---

(١) تفسير ابن عطية ٣٨٥/٢.

(٢) انظر التحرير والتنوير ٦٤٨ ، الكشاف ٧٥/٢.

(٣) تفسير أبي السعود ٢٢١/٣، انظر فتح البيان في مقاصد القرآن ٣١٩/٤.

(٤) التحرير والتنوير ٦٥/٨.

وجملة: " أَلَمْ أَنْهَكُمَا" في موضع البيان لجملة "نَادَاهُمَا"، ولهذا فصلت عن التي قبلها(١)، فهي موضحة ومفسرة لها.

والاستفهام في " أَلَمْ أَنْهَكُمَا" للتقرير والتوبيخ.(٢)

وعطف جملة: " وَأَقُلْ لَكُمَا" على جملة " أَنْهَكُمَا" للمبالغة في التوبيخ، لأن النهي كان مشفوعًا بالتحذير من الشيطان، الذي هو المغري لهما بالأكل من الشجرة.(٣)

****

قال تعالى: " قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ " {الأعراف: ٢٣}

" قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا" جملة مستأنفة مبنية على تقدير سؤال، كأنه قيل فماذا قالا؟ وهذا اعتراف منهما بالذنب فإنهما ظلما أنفسهما بما وقع منهما من المخالفة(٤)، فطلبا من الله المغفرة والرحمة.

وقوله " لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ " " قد أكد جملة جواب الشرط بلام القسم ونون التوكيد إظهارًا لتحقيق الخسران، استرحامًا واستغفارًا من الله تعالى."(٥)

وقيل " لَنَكُونَنَّ" جواب قسم محذوف قبل إن، والتقدير: والله إن لم تَغْفِرْ لنا(٦)، لنكونن من الخاسرين.

****

(١) انظر التحرير والتنوير ٦٦/٨ ، انظر تفسير أبي السعود ٢٢٠/٣ ، البحر المحيط ٢٦/٥.
(٢) انظر تفسير ابن عطية ٣٨٥/٢، فتح البيان في مقاصد القرآن ٣١٩/٤.
(٣) التحرير والتنوير ٦٧/٨، انظر تفسير أبي السعود ٢٢٠/٣.
(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن ٣٢٢/٤.
(٥) التحرير والتنوير ٦٧/٨.
(٦) البحر المحيط ٢٦/٥.

قال تعالى:" قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ " {الأعراف: ٢٤-٢٥}

" قَالَ اهْبِطُوا"استئناف مبني على تقدير سؤال، كأنه قيل: فماذا قال الله عز وجل؟" قَالَ اهْبِطُوا".

"وقد طوى هنا ذكرالتوبة على آدم: لأن المقصود من القصة في هذه السورة التذكير بعداوة الشيطان ،وتحذير الناس من إتباع وسوسته، وإظهار ما يعقبه اتباعه من الخسران والفساد، ومقام هذه الموعظة يقتضي الإعراض عن ذكر التوبة للاقتصار على أسباب الخسارة."(١)

والأمر هنا جاء بقوله: " اهْبِطُوا" لأن الهبوط اشترك فيه الثلاثة؛ آدم وحواء، وإبليس.. والعداوة مسبقة ولا ندعيها ، العداوة بين طرفين: اثنان في طرف هما آدم و حواء، وواحد في طرف هو إبليس.(٢)

وعطفت جملة " وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ" على جملة: " بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ" فالجملتان خبريتان لفظًا و معنى ، والتناسب واضح بينهما فالعداوة ثابتة بين الشيطان والإنسان، والاستقرار في الأرض إلى حين.

(والحين) المدة من الزمن، طويلة أو قصيرة، وقد نكر هنا "حِينٍ" ولم يحدد لاختلاف مقداره باختلاف الأجناس والأفراد ، والمراد به زمن الحياة ، وهذا الزمن المقارن لحالة الحياة والإدراك هو المسمى بالأجل ، أي المدة التي يبلغ إليها الحي بحياته في علم الله تعالى وتكوينه، فإذا انتهى الأجل وانعدمت الحياة انقطع المستقر والمتاع.(٣)

****

(١) التحرير والتنوير ٦٨/٨.
(٢) تفسير الشعراوي ٤٠٩٢/٥١.،انظر مفاتيح الغيب ٣٥/١٣
(٣) التحرير والتنوير ٦٩/٨ بتصرف.

وقوله تعالى: " قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ " {الأعراف:٢٥}

"أعيد فعل القول في هذه الجملة مستأنفًا غير مقترنٍ بعاطفٍ، ولا مُسْتَغْنًي عن فعل القول بواو عطف، مع كون القائل واحدًا، والغرض متحدًا، خروجًا عن مقتضى الظاهر، لأن مقتضى الظاهر في مثله هو العطف."(١)

وقيل: "استئناف كالتي قبلها، وأعيد إما للإيذان ببعد اتصال ما بعده بما قبله، وإما لإظهار الاعتناء بمضمون ما بعده."(٢)

قال ابن عاشور: " وقد يجعل سبب تغيير الأسلوب تخالف القولين بأن القول السابق قول مخاطبةٍ، والقول الذي بعده قول تقدير وقضاء ،أي قدر الله تحيون فيها وتموتون فيها وتخرجون منها."(٣)

وقوله " فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ "

وتقديم المجرورات الثلاثة على متعلقاتها بالأرض التي جعل فيها قرارهم ومتاعهم، إذ كانت هى مقر جميع أحوالهم، وقد جعل هذا التقديم وسيلة إلى مراعاة النظير، إذ جعلت الأرض جامعةٌ لهاتة الأحوال ، فالأرض واحدةٌ وقد تداولت فيها أحوال سكانها المتخالفة تخالفًا بعيدًا.(٤)

ومن المحسنات البديعية: الطباق بين قوله : (تحيون، تموتون) وهو يؤكد المعنى ويقويه.

---

(١) التحرير والتنوير ٦٩/٨.
(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن ٣٢٢/٤.
(٣) التحرير والتنوير ٧١/٨.
(٤) المرجع السابق ٧١/٨.

الفصل الثاني : " حوار بين الأخيار والأشرار"

أصحاب الجنة

قال تعالى: " وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " {الأعراف:٤٢}

هذه آية وعد مخبرة أن جميع المؤمنين هم أصحاب الجنة، ولهم الخلد فيها، ثم اعترض اثناء القول بعقب الصفة ، التي شرطها في المؤمنين باعتراض يخفف الشرط ويرجى في رحمة الله ويعلم أن دينه يسر.(١)

وتكون جملة: " لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا" اعتراضًا بين المبتدأ والخبر وفائدته أنه لما ذكر قوله: " وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ" نبه على أن ذلك العمل وسعهم وغير خارج عن قدرتهم.(٢)

وقال الزمخشري: جملة معترضة بين المبتدأ والخبر للترغيب في اكتساب مالا يكننهه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو في الوسع.(٣)

فالاعتراض وسط بين المبتدأ الذي هو الموصول والخبر الذي هو جملة "أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ"، للترغيب في اكتساب ما يؤدي إلى النعيم المقيم ببيان سهولة مناله ومَيسُّر تحصيله، واسم الإشارة مبتدأ، وأصحاب الجنة خبرة، والجملة خبر للمبتدأ الأول، أو اسم الإشارة بدل من المبتدأ الأول الذي هو الموصول والخبر "أَصْحَابُ الْجَنَّةِ"، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الفضل و الشرف.(٤)

---

(١) تفسير ابن عطية ٤٠١/٢.
(٢) البحر المحيط ٥٢/٥، انظر مفاتيح الغيب ٧١/١٣.
(٣) الكشاف ٨٢/٢.
(٤) تفسير أبى السعود ٢٢٨/٣.

قال ابن عاشور: "وجملة: " لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا" معترضة بين المسند إليه والمسند على طريقة الإدماج(١)، وفائدة هذا الإدماج الارتفاق بالمؤمنين."(٢)

وقوله تعالى: " وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ " {الأعراف:٤١}

أعقب الإنذار والوعيد للمكذبين، بالبشارة والوعد للمؤمنين المُصدِّقين على عادة القرآن في تعقيب أحد الغرضين بالآخر، وعطف على: "الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا" {الأعراف:٤٠}، أي: إن الذين أمنوا وعملوا الصالحات إلخ، لأن بين مضمون الجملتين مناسبة متوسطة بين كمال الاتصال، وكمال الانقطاع، وهو التضاد بين وصف المسند إليهما في الجملتين، وهو التكذيب بالآيات والإيمان بها، وبين حكم المسندين وهو العذاب والنعيم، وهذا من قبيل الجامع الوهميّ المذكور في أحكام الفصل والوصل من علم المعاني.

ودل قوله: "أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ" على قَصْرِ ملازمة الجنة عليهم، دون غيرهم.(٣)

قوله تعالى: " وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " {الأعراف: ٤٣}

وقوله: " وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ" أي نخرج من قلوبهم أسباب الغل أو نطهرها منه حتى لا يكون بينهم إلا التواد والتعاطف.(٤)

---

(١) الإدماج: أن يُضَمَنَ كلامٌ سيق لمعنى معنىً آخر، الإيضاح ٦٤/٤.

(٢) التحرير والتنوير ١٢٩/٨.

(٣) المرجع السابق ١٢٩/٨.

(٤) تفسير أبي السعود ٢٢٨/٣، انظر التحرير والتنوير ١٣١/٨.

وقيل: النزع للغل كناية عن خلقهم في الآخرة سالمي القلوب طاهريها ، متوادين متعاطفين.(١)

والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي للتنبيه على تحقق وقوعه وتقرره ، أي: ونزع ما في صدورهم من غلٍ ،والنزع :حقيقته قلع الشيء من موضعه .(٢)

"واتساق النظم يقتضي أن تكون جملة: " تجري من تحتهم الأنهار" حالًا من الضمير في قوله: "هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"{الأعراف:٤٢}، وتكون جملة : ونزعنا معترضة بين جملة:" أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" {الأعراف:٤٢} وجملة: وقالوا الحمد لله إلخ، اعتراضًا بُيّن به حال نفوسهم في المعاملة في الجنة ، ليقابل الاعتراض الذي أدمج في أثناء وصف عذاب أهل النار، والمبين به حال نفوسهم في المعاملة بقوله: "كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا" { الأعراف: ٣٨} .

" وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ " التعبير بالماضي مراد به المستقبل، والإشارة في قولهم: (لهذا) إلى جميع ما هو حاضر من النعيم في وقت ذلك الحمد ، والهداية له هى الإرشاد إلى أسبابه ، وهى الإيمان والعمل الصالح".(٣)

" وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ" اللام لتوكيد النفي، ويعنون وما كان يستقيم أن نكون مهتدين لولا هداية الله وتوفيقه.

ومفعول نهتدى وهدانا الثاني محذوف لظهور المراد ، أو لإرادة التعميم.(٤)

وقوله تعالى: " لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ"

---

(١) البحر المحيط ٥٢/٥، انظر الكشاف ٨٢/٢.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٣١/٨، انظر تفسير أبى السعود ٢٢٨/٣ ، انظر مفاتيح الغيب ٧٣/١٣.

(٣) التحرير والتنوير ١٣٢/٨.

(٤) انظر الكشاف ٨٢/٢ وما بعدها، تفسير أبي السعود ٢٢٨/٣.

ما سبب تأكيد الفعل بلام القسم وبقد، مع أنهم غير منكرين لمجيء الرسل؟

السبب في ذلك: إما لأنه كناية عن الإعجاب بمطابقة ما وعدهم به الرسل من النعيم لِمَا وجدوه.

وإما لأنهم أرادوا بقولهم هذا الثناء على الرسل والشهادة بصدقهم جميعًا ، مع الثناء على الله ، فأتوا بالخبر في صورة الشهادة المؤكدة التي لا تردد فيها.(١)

وقوله: " وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ" "وذلك النداء إما أن يكون من الله تعالى ، أو أن يكون من الملائكة ، والأولى أن يكون المنادي هو الله سبحانه."(٢)

وجملة: "وَنُودُوا" معطوفة على جملة: " وَقَالُوا" فتكون حالًا أيضًا، وهذا النداء جواب لثنائهم يدل على قبول ما أثنوا به.

والإشارة إلى الجنة ب " تِلْكُمُ" الذي حَقُّه أن يستعمل في المشار إليه البعيد، مع أن الجنة حاضرةٌ بين يديهم، لقصد رفعة شأنها وتعظيم المنَّة بها.(٣)

وقوله تعالى: " أُورِثْتُمُوهَا" معناه: صارت إليكم كما يصير الميراث إلى أهله، والإرث قد يستعمل في اللغة، ولا يراد به زوال الملك عن الميت إلى الحي كما يقال: هذا العمل يورثك الشرف، ويورثك العار أي يُصيرك إليه، ومنهم من يقول: إنهم أعطوا تلك المنازل من غير تعب في الحال فصار شبيهًا بالميراث.(٤)

قال ابن عاشور: "والإرث حقيقته مصير مال الميت إلى أقرب الناس إليه، ويطلق مجازًا على مصير شئ إلى حد بدون عوض ولا غصب تشبيهًا بإرث

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٣٣/٨.
(٢) مفاتيح الغيب ٧٥/١٣.
(٣) التحرير و التنوير ١٣٤/٨.
(٤) مفاتيح الغيب ٧٥/١٣.

الميت، فمعنى قوله: "أُورِثْتُمُوهَا" أعطيتموها عطية هنيئة لا تعب فيها ولامنازعة"[١].

وقوله: " بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" "بسبب أعمالكم لا بالتفضل"[٢]، والباء للسببية أي بسبب أعمالكم، وهى الإيمان والعمل الصالح.

وباء السببية أقتضت الذي أعطاهم منازل الجنة أراد به شكر أعمالهم وثوابها ، من غير قصد تَعَاوُض ولا تقابل ، فجعلها كالشيء الذي استحقه العامل عوضًا عن عَمله، فاستعار لها باء السببية."[٣]

****

حوار بين أصحاب الجنة وأصحاب النار

ومن صور المحاورات بين الأخيار والأشرار ،ما حكاه القرآن من مجادلات وتساؤلات تدور بين أهل الجنة وأهل النار .

فالله تعالى لما شرح وعيد الكفار وثواب أهل الإيمان والطاعات اتبعه بذكر المناظرات التي تدور بين الفريقين، وهى الأصول التي ذكرها في هذه الآيات :

قال تعالى: " وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ " {الأعراف:٤٤،٤٥}

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٤/٨.
(٢) الكشاف ٨٣/٢.
(٣) التحرير والتنوير ١٣٥/٨.

قال تعالى: " وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ" هذا إخبار من الله عز وجل عما يكون منهم، وهذه المناداة لم تكن لقصد الإخبار لهم مما نادوهم له ، بل لقصد تبكيتهم وإيقاع الحسرة في قلوبهم.(١)

وعبر بالماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه، وهذا النداء من أهل الجنة لأهل النار تقريع وتوبيخ وزيادة في الكرب.(٢)

والتعبير عنهم بأصحاب الجنة دون ضميرهم ، توطئة لذكر نداء أصحاب الأعراف ونداء أصحاب النار، وليكون منه مُحَسِّنُ الطباق في مقابلته بقوله: أصحاب النار.

وهذا النداء خطاب من أصحاب الجنة، عبر عنه بالنداء كناية عن بلوغه إلى أسماع أصحاب النار من مسافةٍ سحيقة البعد، و"أنْ" في قوله: "أَنْ قَدْ وَجَدْنَا" تفسيريه للنداء.(٣)

والخبر الذي هو " قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا" مستعمل في لازم معناه وهو الاغتباط بحالهم، وتنغيص أعدائهم بعلمهم برفاهية حالهم. وهذا على سبيل الكناية.

وهذه الكناية جمع فيها المعنى الصريح والمعاني الكنائية، ولكن المعاني الكنائية هى المقصودة ؛إذ ليس القصد أن يعلم أهل النار بما حصل لأهل الجنة ، ولكن القصد ما يلزم عن ذلك ، وأما المعاني الصريحة فمدلوله بالأصالة عند عدم القرينة المانعة.(٤)

---

(١) انظر تفسير ابن عطية ٤٢/٢، تفسير أبي السعود ٢٢٩/٣، فتح البيان في مقاصد القرآن ٣٦٣/٤.

(٢) انظر البحر المحيط ٥٢/٥، تفسير ابن عطية ٤٢/٢.

(٣) التحرير والتنوير ١٣٦/٨، انظر مفاتيح الغيب ٧٨/١٣، انظر الكشاف ٨٣/٢.

(٤) انظرالتحرير والتنوير ١٣٦/٨ ، انظر الكشاف ٨٣/٢.

وقوله: " فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا"، فائدة السؤال التقريع والتوبيخ والتبكيت[١]، فالاستفهام مستعمل مجازًا مرسلًا بعلاقة اللزوم في توقيف المخاطبين على غلطهم ، وإثارة ندامتهم وغمهم على ما فرط منهم ، والشماتة بهم في عواقب عنادهم.

والمعاني المجازية التي علاقتها اللزوم يجوز تعددها مثل الكناية ، وقرينة المجاز هى: ظهور أن أصحاب الجنة يعلمون أن أصحاب النار وجدوا وعده حقا[٢].

وأتى في إخبار أهل الجنة "مَا وَعَدَنَا" بذكر المفعول، وفي قصة أهل النار "ما وعد" ولم يذكر مفعول وعد.

يحتمل أن يكون حذف المفعول الذي للخطاب "وعد" لمجرد الإيجاز لدلالة ما قبله عليه في قوله "مَا وَعَدَنَا" والتقدير: "فهل وجدتم ما وعدكم ربكم" ، أي من العذاب ؛ لأن الوعد يستعمل في الخير والشر.[٣]

قال أبو السعود: " فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا" "حذف المفعول من الفعل الثاني اسقاطًا لهم عن رتبة التشريف بالخطاب عند الوعد."[٤]

قال تعالى: "فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ" معنى التأذين في اللغة النداء والتصويت بالإعلام، أي فينادي مناد من الملائكة يسمع الفريقين.[٥]

---

(١) انظر فتح البيان في مقاصد القرآن ٣٦٣/٤، درج الدرر ٦٥٤/١.

(٢) التحرير والتنوير ١٣٦/٨.

(٣) انظر البحر المحيط ٥٥/٥، التحرير والتنوير ١٣٧/٨، الكشاف ٨٤/٢، تفسير الشعراوي ٤١٤٩/٥٢.

(٤) تفسير أبي السعود ٢٢٩/٣.

(٥) انظر تفسير الشعراوي ٤١٥٠/٥٢، انظر مفاتيح الغيب ٨٩/١٣.

ودلت الفاء في قوله: "فَأَذّنَ مُؤَذِّنٌ" على أن التأذين مُسَبَّب على المحاورة، تحقيقًا لمقصد أهل الجنة من سؤال أهل النار من إظهار غلطهم وفساد معتقدهم.

والتأذين: رفع الصوت بالكلام رفعًا يسمع البعيد بقدر الإمكان.

ووقوع هذا التأذين عقب المحاورة يعلم منه أن المراد بالظالمين، وما تبعه من الصفات والأفعال، هم أصحاب النار، والمقصود من تلك الصفات تفظيع حالهم، وفساد معتقدهم.(١)

****

قال تعالى:" الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ" {الأعراف:٤٥}

فالآية تدل على أن ذلك المؤذن، أوقع لعنة الله على من كان موصوفًا بصفات أربعة:

الصفة الأولى: كونهم ظالمين، لأنه قال تعالى: "أَنْ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظّالِمِينَ".

الصفة الثانية: قوله تعالى: "الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ" ومعناه: أنهم يمنعون الناس عن قبول الدين الحق.

الصفة الثالثة: قوله تعالى: " وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا" والمراد منه إلقاء الشكوك والشبهات في دلائل الدين الحق.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: "وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ" أي وهم بلقاء الله في الدار الآخرة مكذبون جاحدون.(٢)

---

(١) التحرير والتنوير ١٣٧/٨.

(٢) مفاتيح الغيب ٨٠/١٣ بتصرف.

وإجراء الصلة عليهم بالفعلين المضارعين في قوله: "يَصُدُّونَ" وقوله: "وَيَبْغُونَهَا" وشأن المضارع الدلالة على حدث حاصل في زمن الحال ، وهم في زمن التأذين لم يكونوا متصفين بالصد عن سبيل الله ، ولا ببغي عوج السبيل ، والمعنى وصفهم بتكرّر ذلك منهم في الزمن الماضي ، وإنما قصد استحضار حالة التجدد.(١)

****

حوار بين أصحاب الأعراف وأصحاب الجنة وأصحاب النار

ثم ينتقل القرآن إلى مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة ، يحدثنا فيه عن أصحاب الأعراف وما يدور بينهم وبين اهل الجنة وأهل النار من حوار.

قال تعالى: " وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ(٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٤٧) وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ(٤٨) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ(٤٩)" {الأعراف:٤٦-٤٩}

الحجاب: سور ضُرب فاصلًا بين مكان الجنة ومكان جهنم.

"وَعَلَى الْأَعْرَافِ" وعلى أعراف الحجاب، أي: أعاليه وهوالسور المضروب بينهما ، جمع "عُرف" وهو مستعار من عرف الديك، وهو أعلى شئ فيه، وكذلك عرف الفرس.

(١) التحرير والتنوير ٨/١٤٠.

كأن بين الجنة مكانًا مرتفعًا كالعرف يقف عليه أناس يعرفون أصحاب النار بسيماهم، ويعرفون أصحاب الجنة بسيماهم ، فكأن من ضمن السمات والعلامات ما يميز أهل النار عن أهل الجنة.(١)

وقيل: العرف ما أرتفع من الشيء فإنه يكون لظهوره أعرف من غيره.(٢)

وجماعة الأعراف هم من تساوت سيئاتهم مع حسانتهم في ميزان العدل الإلهي الذي لا يظلم أحدًا مثقال ذرة.(٣)

قال ابن عاشور "والذي ينبغي تفسير الآية به :أن هذه الأعراف جعلها الله مكانًا يوقف به من جعله الله من أهل الجنة قبل دخوله إياها ، وذلك ضرب من العقاب خفيف ، فجعل الداخلين إلى الجنة متفاوتين في السبق تفاوتًا يعلم الله أسبابه ومقاديره".(٤)

وتقديم " وَبَيْنَهُمَا" وهو خبر على المبتداء، للإهتمام بالمكان المتوسط بين الجنة والنار وما ذُكر من شأنه ، وبهذا التقديم صح تصحيح الإبتداء بالنكرة، والتنكير للتعظيم في قوله: " حِجَابٌ".

وتقديم الجار والمجرور "وَعَلَى الْأَعْرَافِ" لتصحيح الإبتداء بالنكرة، إذ اقتضى المقام الحديث على رجال مجهولين يكونون على أعراف هذا الحجاب، قبل أن يدخلوا الجنة ، فيشهدون هنالك أحوال أهل الجنة وأحوال أهل النار، ويعرفون رجالًا من أهل النار، ومن أهل الجنة بسيماهم.(٥)

---

(١) أنظر تفسير البيضاوى ١٤/٣، انظر تفسير أبي السعود ٢٢٩/٣، تفسير الشعراوي ٤١٥٢/٥٢.

(٢) تفسير أبي السعود ٢٢٩/٣، تفسير البيضاوي ١٤/٣.

(٣) تفسير الشعراوي ٤١٥٢/٥٢، انظر مفاتيح الغيب ٨٣/١٣.

(٤) التحرير والتنوير ١٤٢/٨.

(٥) انظر التحرير والتنوير ١٤٠/٨ وما بعدها.

وقوله تعالى:" وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ " فالمعنى أنهم إذا نظروا إلى أهل الجنة سلموا على أهلها، وعند هذا تم كلام أهل الأعراف.(١)

ونداؤهم أهل الجنة بالسلام يؤذن بأنهم في إتصال بعيد من أهل الجنة، فجعل الله ذلك أمارة لهم بحسن عاقبتهم ، وبان طمعهم في قوله :" لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ " وهو طمع مستند إلى علامات وقوع المطموع فيه فهو من صنف الرجاء.

وجملة "لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ" مستأنفة للبيان؛ لأن قوله:" وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ " يثير سؤالًا يبحث عن كونهم صائرين إلى الجنة أو إلى غيرها.(٢)

قال الزمخشري:" فإن قلت: ما محل قوله: لم يدخلها وهم يطمعون؟ قلت: لا محل له، لأنه إستئناف؛ كأن سائلًا سأل عن حال أصحاب الأعرف فقيل: لم يدخلها وهو يطمعون، يعني حالهم أن دخولهم الجنة أستأخر عن دخول أهل الجنة، فلم يدخولها لكونهم محبوسين وهم يطمعون لم ييأسوا."(٣)

وقوله تعالى:" وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ " {الأعراف: ٤٧}

ومعنى الآية: أنه كلما وقعت أبصار أصحاب الأعراف على أهل النار تضرعوا إلى الله تعالى في أن لا يجعلهم من زمرتهم، والمقصود من جميع هذه الآيات التخويف.(٤)

وفي التعبير بقوله: "صُرِفَتْ" دليل على أن أكثر أحوالهم النظر إلى أهل الجنة ، وأن نظرهم إلى أصحاب النار ليس من قبلهم بل هم محمولون عليه ،

---

(١) مفاتيح الغيب ٨٥/١٣.
(٢) انظر التحرير والتنوير ١٤٣/٨.
(٣) الكشاف ٨٥/٢.
(٤) مفاتيح الغيب ٨٦/١٣.

والمعنى أنهم إذا حملوا على صرف أبصارهم ورأوا ما عليه أهل النار من العذاب استغاثوا بربهم من أن يجعلهم معهم.(١)

يقول الشعراوي:" انظر إلى التعبير القرآني " صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ " أي أنهم لم يصرفوا أبصارهم لأن المسألة ليست اختيارية ؛لأنهم يكرهون أن ينظروا لهم لأنهم ملعونون ، وكأن في "صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ " لونًا من التوبيخ لأهل النار.(٢)

وجملة " وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ " معطوفة على جملة " وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ "، و"صرفت" كناية عن الإلتفات .

قال ابن عاشور:" الصرف: أمر الحال بمغادرة المكان، والصرف هنا مجاز في الإلتفات أو استعارة.(٣)

****

قال تعالى:" وَنَادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ" { الأعراف: ٤٨-٤٩}

قوله تعالى: " وَنَادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ " التعبير عنهم هنا بأصحاب الأعراف إظهار في مقام الإضمار، لزيادة التقرير.(٤)

"والنداء يؤذن ببعد المخاطب ، فيظهر أن أهل الأعراف لما تطلعوا بأبصارهم إلى النار عرفوا رجالًا كانوا جبارين في الدنيا".(٥)

---

(١) البحر المحيط ٥٨/٥.
(٢) تفسير الشعراوي ٤١٥٢/٥٢.
(٣) التحرير والتنوير ١٤٣/٨.
(٤) تفسير أبي السعود ٢٣٠/٣ بتصرف.
(٥) التحرير والتنوير ١٤٥/٨.

وقوله: " ما أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ " الذي كنتم تجمعون من الأموال والعدد في الدنيا للصد عن سبيل الله، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، وقيل: (ما) نافية ومعنى "ما أَغْنَى" ما أجزى، والخبر مستعمل في الشماتة والتوقيف على الخطأ.(١)

وقوله: "وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ" "ما" مصدرية، أي واستكباركم الذي مضى في الدنيا، ووجه صوغه بصيغة الفعل دون المصدر إذ لم يقل استكباركم ؛ ليتوسل بالفعل إلى كونه مضارعًا فيفيد أن الاستكبار كان دأبهم لا يفترون عنه.

والاستفهام في قوله: " أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ " مستعمل في التقرير.

والمعنى أن أصحاب الأعراف أشاروا إلى فريق من أهل الجنة كانوا يستضعفونهم ويستقلون أحوالهم.

و قوله تعالى " ادْخُلُوا الْجَنَّةَ " قد اختلفوا فيه، فقيل هم أصحاب الأعراف والله تعالى يقول لهم ذلك.(٢)

وقيل: جملة " ادْخُلُوا الْجَنَّةَ" مقول قول محذوف اختصارًا لدلالة السياق عليه، وحذف القول في مثله كثير ولاسيما إذا كان المقول جملة إنشائية، والتقدير: قال لهم الله ادخلوا الجنة فكذب الله قسمكم وخيب ظنكم، وهذا كله من كلام أصحاب الأعراف.(٣)

قال الألوسي: "هذا من كلام أصحاب الأعراف يقولون لأهل الجنة المشار إليهم: دوموا في الجنة غير خائفين ولا محزونين على أكمل سرور وأتم كرامة".(٤)

****

(١) انظر فتح البيان في مقاصد القرآن٤ /٣٦٣ ، التحرير والتنوير ١٤٦/٨، انظر البحر المحيط٥/٥٩، انظر تفسير أبي السعود ٢٣٠/٣.

(٢) انظر مفاتيح الغيب ٨٧/١٣، انظر تفسير الشعراوي ٤١٥٤/٥٢.

(٣) التحرير والتنوير ١٤٧/٨.

(٤) روح المعاني ١٢٦/٨.

حوار بين أصحاب النار وأصحاب الجنة

ثم تسوق لنا السورة الكريمة بعد ذلك مشهدًا ختاميًا من مشاهد يوم القيامة ، تدور محاوراته بين أصحاب النار وأصحاب الجنة:

قال تعالى: " وَنَادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (٥١) " { الأعراف: ٥٠-٥١}

يخبر تعالى عن المحاورة بين أهل النار وأهل الجنة بعد أن استقر بكل من الفريقين القرار واطمأنت به الدار، وعن استغاثتهم به عند نزول عظيم البلاء من شدة العطش والجوع، فكان قولهم: إن الله منع الكافرين شراب الجنة وطعامها.(١)

وفعل "الفيض" حقيقته سيلان الماء وانصبابه بقوة ويستعمل مجازًا في الكثرة والسخاء ووفرة العطاء.

فالفيض في الآية إذا حمل على حقيقته، كان أصحاب النار طالبين من أصحاب الجنة أن يصبوا عليهم ماء ليشربوا منه، وعلى هذا المعنى حمله المفسرون.

ويجوز أن يحمل الفيض على المعنى المجازي، وهو سعة العطاء والسخاء من الماء والرزق، إذا ليس معنى الصب بمناسب ؛ بل المقصود الإرسال والتفضل، ويكون سؤلهم من الطعام مماثلًا لسؤلهم من الماء في الكثرة، فيكون هذا الحمل تعريض بأن أصحاب الجنة أهل سخاء.

وضمير "قالوا" لأصحاب الجنة، وهو جوابهم عن سؤال أصحاب النار، ولذلك فصل على طريقة المحاورة.(٢)

****

(١) انظر صفوة التفاسير ٤٤٨/٨، الكشاف ٨٥/٢.

(٢) انظر التحرير والتنوير ٨/ ١٤٨-١٤٩ .

وقوله تعالى: " الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا " { الأعراف: ٥١}

يبين لنا الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية من هم الكافرون الذين حرّم عليهم الجنة ، إنهم من اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا وغرتهم الدنيا ،فاليوم يتركهم الله في العذاب ،كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا.(١)

وقوله: " فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ" " أي نتركهم في النار، والمعنى نفعل بهم فعل الناسي بالمنسي من عدم الإعتناء بهم وتركهم في النار تركًا كليًا ، والفاء فصيحة ، وكثر مثل هذه الاستعارة في القرآن؛ لأن تعليم المعاني التي في عالم الغيب لا يمكن أن يعبر عنها إلا بما يماثلها من عالم الشهادة، وسُمي جزاء نسيانهم بالنسيان مجازًا لأن الله لا ينسى شيئًا."(٢)

وقيل: "أن المعنى: " نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا " أي نعاملهم من نسي نتركهم في النار كما فعلوا هم في الإعراض بآياتنا، وبالجملة فسمى الله جزاء نسيانهم بالنسيان كما في(٣) قوله تعالى: " وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا" {الشورى: ٤٠}.

والمراد من هذا النسيان أنه لا يجيب دعاءهم ولا يرحمهم "

وقيل النسيان مستعمل مجازًا في الإهمال والترك لأنه من لوازم النسيان، فأنهم لم يكونوا في الدنيا ناسين لقاء يوم القيامة، فقد كانوا يذكرونه ويتحدثون عنه حديث من لا يصدق بوقوعه.(٤)

---

(١) تفسير الشعراوي ٤١٥٦/٢٥ بتصرف.

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن ٣٦٣/٤.

(٣) ففي الآية الكريمة مشاكلة وهى: ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقًا أو تقديرًا.

ــ حيث أطلق لفظ سيئة الثاني على جزاء السيئة. بغية الإيضاح ٢٣/٤.

(٤) التحرير والتنوير ١٥٠/٨.

قال الألوسي: "الكلام خارج مخرج التمثيل، أي: نتركهم في النار وننساهم مثل نسيانهم لقاء هذا اليوم العظيم الذي ينبغى ألا ينسى."(١)

وقوله كما نسوا "ظرف مستقر في موضع الصفة لموصوف محذوف دل عليه ننساهم،: أي نسيانًا كما نسوا.

وقوله: " وَما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ " عُطف على قوله: "كما نسوا" أي: وكما كانوا منكرين بأنها من عند الله تعالى إنكارًا مستمرًا.(٢)

فالجملتان خبريتان لفظًا ومعنى ، والتناسب واضح بينهما إذ المسند والمسند إليه فيهما واحد، لذلك عطف الثانية على الأولى، وهناك غرض آخر أفادته الواو وهو الجمع بين النسيان والجحود.

لما شرح أحوال أهل الجنة، وأهل النار، وأهل الأعراف، ثم شرح الكلمات الدائرة بين هؤلاء الفرق الثلاث على وجه يصير سماع تلك المناظرات حاملًا للمكلف على الحذر والاحتراز، وداعيًا له إلى النظر والاستدلال، بيَّن شرف هذا الكتاب الكريم ونهاية منفعته(٣)، فقال سبحانه: "

وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " {الأعراف: ٥٢}

(١) روح المعاني ١٢٧/٨.
(٢) انظر التحرير والتنوير٨ /١٥١ ، تفسير أبي السعود ٢٣١/٣.
(٣) مفاتيح الغيب ٩١/١٣.

الفصل الثالث :"حوار بين الرسل –عليهم السلام– وأقوامهم"

حوار بين نوح -عليه السلام- و قومه

من المحاورات التي دارت بين كل رسول وقومه هذه المحاورة التي بين نوح –عليه السلام – وقومه ، فقد أرسله الله تعالى إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وإلى ترك عبادة غيره، وقد حكى القرآن الكريم جانبًا من هذا الحوار في سورة الأعراف:

قال تعالى: " لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ(٦٤)" {الأعراف:٥٩-٦٤}.

قوله تعالى:" لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحًا إِلى قَوْمِهِ "جواب قسم محذوف، أي:" والله لقد أرسلنا نوحًا "واطراد استعمال هذه اللام مع "قد" لكون مدخولها مظنة للتوقع الذي هو معنى "قد".(١)

"وقد أكد هذا الخبر بلام القسم وحرف التحقيق؛ لأن الغرض من هذه الأخبار تنظير أحوال الأمم المكذبة رسلها بحال مشركين العرب في تكذيبهم رسالة محمد –صلى الله عليه وسلم–.

(١) تفسير أبي السعود ٢٣٥/٣، انظر الكشاف ٨٩/٢، انظر فتح البيان في مقاصد القرآن ٣٨٥/٤، تفسير البيضاوي ١٧/٣.

وكثر في الكلام اقتران جملة جواب القسم بقد؛ لأن القسم يهيئ نفس السامع لتوقع خبر مهم".(١)

وعطف جملة " فَقالَ يا قَوْمِ" على جملة " أَرْسَلْنا" بالفاء إشعارًا بأن ذلك القول صدر منه بِفَور إرساله، فهي مضمون ما أرسل به.

والأسلوب الإنشائي في ندائه قومه: " يا قَوْمِ" الغرض منه تنبيهم لما يلقيه إليهم، وتذكيرهم بأنهم قومه، وفيه أيضًا استعطاف لهم.(٢)

وقوله تعالى: " اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ "

أمرهم نوح عليه السلام بعبادة الله تعالى، وفي ذلك تكليف لهم وحكم أن لا إله إلا الله، وفي هذا إقرار بالتوحيد.(٣)

وقوله تعالى: " ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ ".

قال الزمخشري:" فإن قلت فما موقع الجملتين بعد قوله: "اعْبُدُوا اللَّهَ" ؟ قلت" الأولى بيان لوجه اختصاصه بالعبادة، والثانية: بيان للداعي إلى عبادته لأنه هو المحذور عقابه دون ما كانوا يعبدونه من دون الله.(٤)

وقوله:" عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ" جملة متضمنة لتعليل الأمر بالعبادة، والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الطوفان.(٥)

قال ابن عاشور: وجملة: " إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ" يجوز أن تكون في موقع التعليل، لمضمون قوله:" ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ" كأنه قيل: اتركوا

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٧/٨، وانظر البحر المحيط ٨١/٥.

(٢) البحر المحيط ٨١/٥ بتصرف.

(٣) مفاتيح الغيب ١٦١/١٣ بتصرف.

(٤) الكشاف ٨٩/٢.

(٥) فتح البيان في مقاصد القرآن ٣٨٥/٤.

عبادة غير الله خوفًا من عذاب يوم عظيم، وبُني نظم الكلام على خوف المتكلم عليهم، دلالة على إمحاضه النصح لهم وحرصه على سلامتهم".(١)

******

قال تعالى:" قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ" {الأعراف: ٦٠-٦١}.

يطلق الملأ على أشراف القوم وقادتهم لأن شأنهم أن يكون رأيهم واحدًا عن تشاور، وهذا المعنى هو المناسب في هذه الآية بقرينة "من" الدالة على التبعيض، أي أن قادة القوم هم الذين تصدوا لمجادلة نوح والمناضلة عن دينهم بمسمع عن القوم الذين خاطب جميعهم.

وفصلت جملة: " قالَ الْمَلَأُ" على طريقة الفصل في المحاورات، فهو استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية قوله -عليه السلام-، كأنه قيل: فماذا قالوا له- عليه السلام- في مقابلة نصحه؟ فقيل: قال الرؤساء من قومه والأشراف " إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ".(٢)

وجاءت جملة الجواب مؤكدة بأن و باللام، للدلالة على انهم أكدوا إعتقادهم أن نوحًا في الضلال.

وظرفية "في ضلال" مجازية تعبيرًا عن تمكن وصف الضلال منه، فكأن الضلال جاء ظرفًا له وهو فيه فكأنه محيط به من جوانبه إحاطة الظرف بالمظروف.(٣)

قوله "إن لا نراك" هذه الرؤية لا بد وأن تكون بمعنى الإعتقاد والظن دون المشاهدة والرؤية.(٤)

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٨/٨.
(٢) انظر تفسير أبي السعود ٢٢٥/٣، والتحرير والتنوير ١٩٠/٨.
(٣) انظر التحرير والتنوير ١٩١/٨، انظر البحر المحيط ٨١/٥.
(٤) مفاتيح الغيب ١٦٣/١٣.

قال تعالى:" يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ" {الأعراف: ٦١}.

فصلت جملة "قال" على طريقة فصل المحاورات[١]، فهو استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية جوابهم عليه كأنه قيل: فماذا قال لهم -عليه السلام- في مقابلة وصفه بالضلال المبين؟ فقيل: قال لهم: "ليس بي ضلالة".

والنداء في جوابه إياهم " يا قَوْمِ " للاهتمام بالخبر، ولم يخص خطابه بالذين جاوبوه بل أعاد الخطاب إلى القوم كلهم ونادهم بإضافتهم إليه إستمالةً لقلوبهم نحو الحق؛ ولأن جوابه مع كونه مجادلة للملأ من قومه هو أيضًا يتضمن دعوة عامة كما هو بين.[٢]

وقوله: " لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ " قال الزمخشري:" فإن قلت: لما قال " لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ " ولم يقل "ضلال" كما قالوا؟ قلت الضلالة: أخصّ من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلالة عن نفسه، كأنه قال: ليس بى شيء من الضلال، كما لو قيل لك: آلك تمرة، فقلت ما لى تمرة".[٣]

لأن الضلالة لا تطلق؛ إلا على الفعلة الواحدة، فالضلالة أدنى من الضلال وأقل منه، فهى أبلغ، لأنها تدل على أنه ليس به حتى ولو قليل من الضلال.

وجملة "أبلغكم رسالات ربي"استئناف مسوق لتقرير رسالته وتفصيل أحكامها وأحوالها.[٤]

---

(١) التحرير والتنوير ١٩١/٨.
(٢) انظر التحرير والتنوير ١٩١/٨، انظر تفسير أبي السعود ٢٣٥/٣.
(٣) الكشاف ٨٩/٢.
(٤) تفسير أبي السعود ٢٦٣/٣.

وقيل: فيه وجهان أحدهما: أن يكون كلامًا مستأنفًا بيانًا لكونه رسول رب العالمين، والثاني: أن يكون صفة رسول.

قال ابن عاشور: "والجملة المقصود منها إفادة التجدد، وأنه غير تارك التبليغ من أجل تكذيبهم.

والتبليغ والإبلاغ: جعل الشيء بالغًا أي واصلًا إلى المكان المقصود، وهو هنا استعارة للإعلام بالأمر المقصود علمه، فكأنه ينقله من مكان إلى مكان".(١)

وقوله تعالى: "رسالات ربي" يدل على أنه حمل أنواعًا كثير من الرسالة، وهى أقسام التكاليف من الأوامر والنواهى والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر.(٢)

ووجه العدول عن الإضمار إلى الإظهار، هو ما تؤذن به إضافة الرب إلى ضمير المتكلم من لزوم طاعته، وتبليغ ما أمره بتبليغه، وإن كره قومه.(٣)

وقوله تعالى: "وانصح لكم" يقال نصحته ونصحت له، وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إمحاض النصيحة وأنها وقعت خالصة للمنصوح له مقصودًا بها جانبه لا غير .(٤)

وقد عطف على قوله "ابلغكم" فالجملتان خبريتان لفظًا ومعنى والتناسب واضح بينهما، وصيغة المضارع للدلالة على تجدد النصح لهم.

وعقب ذلك بقوله: "وأعلم من الله ما لا تعلمون" جمعًا لمعانٍ كثيرة مما تتضمنه الرسالة، وتأييدًا لثباته على دوام التبليغ والنصح لهم، لأنه يعلم ما لا

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٣/٨.
(٢) انظر مفاتيح الغيب ١٦٤/١٣، الكشاف ٩٠/٢.
(٣) انظر التحرير والتنوير ١٩٤/٨.
(٤) الكشاف ٩٠/٢، انظر فتح البيان في مقاصد القرآن ٣٨٥/٤.

يعلمونه مما يحمله على الاسترسال في عمله ذلك، فجاء بهذا الكلام الجامع، ويتضمن هذا الإجمال البديع تهديدًا لهم بحلول العذاب بهم في العاجل والآجل.(١)

وقد عطف قوله: " وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " على ما قبله أيضًا للاتفاق في الخبرية لفظًا ومعنى ووجود المناسبة .

"وهو تقرير لرسالته عليه الصلاة والسلام".(٢)

"وما أحسن سياق هذه الأفعال قال أولًا: " أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي" وهذا مبدأ أمره معهم وهو التبليغ، كما قال: "إن عليك إلا البلاغ" ثم قال: " وَأَنْصَحُ لَكُمْ" أي: أخلص لكم في تبين الرشد والسلامة في العاقبة إذا عبدتم الله وحده، ثم قال: " وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" من بطشه بكم، وهو مآل أمركم إذا لم تفردوه بالعبادة، فنبه على مبدأ أمره ومنتهاه معهم".(٣)

****

قال تعالى:" أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" {الأعراف: ٦٣}.

قال تعالى: " أَوَعَجِبْتُمْ" الهمزة للإنكار، والواو للعطف، والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: أكذبتم وعجبتم أن جاءكم؟(٤)

وقوله: " لِيُنْذِرَكُمْ" علةٌ للمجيء، أي ليحذركم عاقبة الكفر والمعاصي، " وَلِتَتَّقُوا" عطف على العلة الأولى مترتبةٌ عليها، " وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ " عطف على

(١) انظر التحرير والتنوير ١٩٤/٨.
(٢) تفسير أبي السعود ٢٣٦/٣.
(٣) البحر المحيط ٨٤/٥.
(٤) مفاتيح الغيب ١٦٦/١٣، الكشاف ٩١/٢، انظر تفسير البيضاوي ١٨/٣، انظر فتح البيان في مقاصد القرآن ٣٨٨/٤.

العلة الثانية مترتبة عليها، أي: ولتتعلق بكم الرحمة بسبب تقواكم، وفائدة حرف الترجي التنبيه على عزة المطلب وأن التقوى غير موجب للرحمة بل هى منوطة بفضل الله تعالى.(١)

****

قال تعالى: " فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ" {الأعراف: ٦٤} قدم الإخبار بالإنجاء على الإخبار بالإغراق، مع أن مقتضى مقام العبرة تقديم الإخبار باغراق المنكرين، فقدم الإنجاء للاهتمام بإنجاء المؤمنين، وتعجيلًا لمسرة السامعين من المؤمنين، بأن عادة الله إذا أهلك المشركين أن ينجي الرسول والمؤمنين، فلذلك التقديم يفيد التعريض بالنذارة.(٢)

وقوله :" فِي الْفُلْكِ" متعلق بمعه، كأنه قيل: والذين استقروا معه في الفلك، أو صحبوه في الفلك(٣)، وبهذا التعليق علم أن الله أمره أن يحمل في الفلك معشرًا، وأنهم كانوا مصدقين له، فكان هذا التعليق إيجازًا بديعًا.

وجملة " إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ" تتنزل منزلة العلة لجملة "أغرقنا" مما دل عليه حرف "إن" لأن حرف "إن" هنا لا يقصد به رد الشك والتردد، إذ لا شك فيه، وإنما المقصود من الحرف الدلالة على الاهتمام بالخبر، ومن شأن "إن" إذا جاءت للاهتمام أن تقوم مقام فاء التفريع، وتفيد التعليل وربط الجملة بالتي قبلها.

---

(١) تفسير أبي السعود ٢٣٦/٣.

(٢) التحرير والتنوير ١٩٧/٨، انظر تفسير أبي السعود ٢٣٧/٣.

(٣) الكشاف ٩١/٢.

و" عَمِينَ" جمع عَمٍ جمع سلامة بواو ونون، وهو صفة على وزن فعلٍ مثل أشرٍ، مشتق من العمى، وأصله فقدان البصر ويطلق مجازًا على فقدان الرأي النافع، ويقال أعمى القلب[١].

*****

حوار بين هود -عليه السلام- وقومه

وينتقل القرآن الكريم إلى محاورات أخرى حدثت بين هود -عليه السلام- وبين قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام، فأمرهم بعبادة الله وحده:

قال تعالى:" وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ(٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ(٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ(٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ(٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ(٧١) فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ(٧٢)"

اعلم أن هذا هو القصة الثالثة، هى قصة هود مع قومه. أما قوله:" وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا" انتصب قوله تعالى: "أخاهم" بقوله تعالى: "أرسلنا" في أول الكلام والتقدير، ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا.[٢]

---

١ التحرير والتنوير ١٩٨/٨.

(٢) مفاتيح الغيب ١٦٨/١٣، انظر تفسير البيضاوي ١٨/٣.

فتكون الواو لمجرد الجمع اللفظي من عطف القصة على القصة، فيكون العطف من عطف الجمل، وليس من عطف المفردات.

وقدم المجرور على المفعول الأصلي ليتأتى الإيجاز بالإضمار، حيث أريد وصف هود بأنه من إخوة عاد، من غير احتياج إلى إعادة لفظ عادٍ، "وهودًا" بدل أو بيان من آخاهم.

والأخ هنا مستعمل في مطلق القريب، وعلى وجه المجاز المرسل ومنه قولهم: يا أخا العرب، وقد كان هودٌ من بني عاد، ويطلق الأخ مجازًا على المصاحب الملازم، كقولهم: هو أخو الحرب، فالمراد أن هودا كان من ذوي نسب قومه عاد.(١)

وفصلت جملة: " قَالَ يَا قَوْمِ" ولم تعطف كما عطف نظيرها المتقدم في قصة نوح لأن الحال اقتضى أن هنا تكون مستأنفة استئنافًا بيانيًا؛ لأن قصة هود لما وردت عقب قصة نوح المذكور فيها دعوته قومه صار السامع مترقبًا معرفة ما خاطب به هود قومه حيث بعثه الله إليهم، فكان ذلك مثار سؤال في نفس السامع أن يقول: فماذا قال لهم، فقيل قال: " يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ".(٢)

قال الزمخشري: "لم حذف العاطف من قوله:" يَا قَوْمِ" ولم يقل "فقال" كما في قصة نوح؟ قلت: هو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: "قال يا قوم اعبدوا الله".(٣)

وقوله: " مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ" استئناف جار مجرى البيان للعبادة المأمور بها، والتعليل لها أو للأمر.(٤)

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٨/ ٢٠٠- ٢٠١.
(٢) انظر التحرير والتنوير ٨/٢٠١، تفسير أبي السعود ٣/٢٣٧.
(٣) الكشاف ٢/٩١.
(٤) تفسير أبي السعود ٣/٢٣٧.

وجملة: " أَفَلَا تَتَّقُونَ" استفهامية إنكارية معطوفة بفاء التفريع على جملة:" مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ.

وقيل الغرض من الاستفهام الاستعطاف وتحضيض على تحصيل التقوى.(١)

"وقيل: " أَفَلَا تَتَّقُونَ" إنكارٌ واستبعادٌ لعدم اتقائهم عذاب الله تعالى بعدما علموا ما حل بقوم نوح، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي: "ألا تتفكرون" أو "أتعقلون" فالتوبيخ على المعطوفين معًا، أو "أتعلمون ذلك فلا تتقون" فالتوبيخ على المعطوف فقط.

وفي سورة هود: " أفلا تعقلون" ولعله عليه السلام خاطبهم بكل منهما، وقد اكتفى بحكاية كل منهما في موطن عن حكايته في موطن أخر، كما لم يذكر ههنا ما ذكر هناك من قوله تعالى: "إن انتم إلا مفترون" وقس على ذلك حال بقية ما ذكر وما لم يذكر من أجزاء القصة، بل حال نظائره في سائر القصص لاسيما في المحاورات الجارية في الأوقات المتعددة "(٢).

****

قال تعالى: " قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ" {الأعراف:٦٦}.

قوله تعالى :" قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ" استئناف مبني على تقدير سؤال سائل قال: فماذا قال قومه؟ فقيل:" قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ". لذلك ترك العطف.

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/٨٥ ، التحرير والتنوير ٨/ ٢٠٢

(٢) تفسير أبي السعود/ ٣/٢٣٨.

وقوله: " إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ" والرؤية قلبية، أي إنا لنعلم أنك في سفاهة، والسفاهة سخافة العقل.(١)

"وجعلت السفاهة ظرفًا على طريق المجاز: أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها.

وفي إجابة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من نسبهم إلى الضلال والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحكم والإغضاء وترك المقابلة، بما قالوا لهم مع علمهم بأن خصومهم أضلّ الناس وأسفههم – أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عزّ وجل ذلك تعليم لعبادة كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم".(٢)

وقوله:" وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ" مؤكدين لظنهم كذبه فيما ادعاه من الرسالة.(٣)

****

قال تعالى:" قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ" {الأعراف: ٦٧-٦٨}.

فصلت جملة: "قال" لأنها على طريقة المحاورة. وقد تقدم نظير ذلك.

وقوله تعالى: " وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ" استدراك لما قبله،باعتبار ما يستلزمه ويقتضيه من كونه في الغاية القصوى من الرشد والأناة والصدق والأمانة، فإن الرسالة من جهة رب العالمين موجبةُ لذلك حتمًا.

---

(١) التحرير والتنوير٨/٢٠٢.
(٢) الكشاف ٢/٩٢.
(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن ٤/٣٩١.

وقوله: " أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي"، استئناف سيق لتقرير رسالته وتفصيل أحوالها.

وقوله تعالى: " وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ" معروف بالنصح والأمانة مشهورٌ بين الناس بذلك، وإنما جيء بالجملة الاسمية دلالة على الثبات والاستمرار وإيذانًا بأن من هذا حاله لا يحوم حوله شائبة السفاهة والكذب."(١)

وهود عليه السلام قال: " وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ " وهو صيغة اسم الفاعل، ونوح عليه السلام قال: "أنصح لكم" بالفعلية، والفرق بين الصورتين أن الشيخ عبد القاهر النحوي ذكر في دلائل الإعجاز أن صيغة الفعل تدل على التجدد ساعة فساعة، وأما صيغة اسم الفاعل فإنها دالة على الثبات والاستمرار على ذلك الفعل.(٢)

فأتى هود بالجملة الاسمية ونوح بالفعلية؛ وذلك لأن صيغة الفعل تدل على تجدده ساعة بعد ساعة، وكان نوح يكرر في دعائهم ليلًا ونهارًا من غير تراخ، فناسب التعبير بالفعل، وأما هود فلم يكن كذلك بل كان يدعوهم وقتًا دون وقت، ولهذا عبر بالاسمية.(٣)

وأتبع ناصح ب"آمين" وهو الموصوف بالأمانة، لأن الأمانة حالة في الانسان تبعثه على حفظ ما يجب عليه من حق لغيره، وتمنعه من إضاعته.

والأمانة من أعز أوصاف البشر وهى من أخلاق المسلمين، والصدق من الأمانة.(٤)

---

(١) تفسير أبي السعود ٢٣٨/٣، انظر التحرير والتنوير ٢٠٣/٨.

(٢) انظر مفاتيح الغيب ١٧١/١٣.انظر دلائل الإعجاز ١٢٢

(٣) انظر فتح البيان في مقاصد القرآن ٣٩١/٤.

(٤) انظر التحرير والتنوير ٢٠٣/٨، انظر البحر المحيط ٨٥/٥.

والأمين هو الثقة، وهو فعيل من أمن يأمن أمنًا فهو آمن وأمين بمعنى واحد.

ومدار أمر الرسالة والتبليغ عن الله على الأمانة، فوصف نفسه بكونه أمينًا تقريرًا للرسالة والنبوة.(١)

****

قال تعالى:" أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " {الأعراف: ٦٩}.

قوله تعالى: " أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ " هذا مماثل لقول نوح لقومه وقد تقدم ذكره في قصة نوح.

وقوله:" وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ"

"يجوز أن يكون قوله: "واذكروا" عطفًا على قوله: "اعبدوا الله" {الأعراف:٦٥}، ويكون ما بينهما اعتراضًا حُكي به ما جرى بينه وبين قومه من المحاورة التي قاطعوه بها عقب قوله لهم "اعبدوا الله"{الأعراف:٦٥}، فلما أتم جوابهم عما قاطعوه به كلامه عاد إلى دعوته، فيكون رجوعًا إلى الدعوى، ويجوز أن يكون عطفًا على قوله: " أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ" أي: لا تنكروا أن جاءكم ذكر من ربكم، واذكروا نعمته عليكم، فيكون تكملة للاستدلال".(٢)

قال الزمخشري :"فإن قلت:"إذ" في قوله: " إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ" ما وجه انتصابه ؟

---

(١) انظر مفاتيح الغيب ١٧١/١٣.

(٢) التحرير والتنوير ٢٠٥/٨.

قلت: هو مفعول به وليس بظرف، أي: اذكروا وقت استخلافكم".[١]

"وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث مع أنها المقصودة بالذات، للمبالغة في إيجاب ذكرها، لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما فيه بالطريق البرهانيّ، ولأن الوقت مشتمل عليها، فإذا استحضر كانت هي حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدةٌ عياناً"[٢].

وقد ذكر هود –عليه السلام– ههنا نوعين من الإنعام:

الأول: أنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وذلك بأن أورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وما يتصل بها من المنافع والمصالح.

الثاني: قوله تعالى: " وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً" ، أي زاد في أجسامكم قوة وضخامة، فخلقكم عقلاء أصحاء.[٣]

وقوله تعالى:" فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللّهِ" التي أنعم بها عليكم من فنون النعماء التي هذه من جملتها، وهذا تكرير للتذكير لزيادة التقرير، وتعميم أثر تخصيص".[٤]

وقيل: لا بد في الآية من إضمار، والتقدير: واذكروا آلاء الله واعملوا عملًا يليق بتلك الإنعامات لعلكم تفلحون، وإنما أضمرنا العمل لأن الصالح الذي هو الظفر بالثواب لا يحصل بمجرد التذكر بل لا بد له من العمل.[٥]

---

(١) الكشاف ٢/٩٢.
(٢) تفسير أبي السعود ٣/٢٣٩.
(٣) انظر مفاتيح الغيب ١٣/١٧٢.
(٤) تفسير أبي السعود ٣/٢٣٩.
(٥) مفاتيح الغيب ٣/١٧٣.

" فإنه ذكرهم بنعمة واضحة وهى كونهم خلفاء، ونعم مجملة وهى زيادة بصطتهم،ثم ذكّرهم بقية النعم بلفظ العموم، وهو الجمع المضاف، "والآلاء" جمع "إلّى"، والإلى: النعمة.(١)

****

قال تعالى: " قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" {الأعراف: ٧٠}.

" قَالُوا" مجيبين عن تلك النصائح العظيمة، "أجئتنا لنعبد الله وحده" كذبوه بطريق الاستفهام الإنكاري، لدعائه غلى عبادة الله وحده دون معبوداتهم التي جعلوها شركاء لله.(٢)

"فكأنهم راموا استنزال نفس هود ومحاولة إرجاعه عما دعاهم إليه، فلذلك اقتصروا على الإنكار، وذكروه بأن الأمر الذي أنكره هو دين أباء الجميع تعريضًا بأنه سفّه أباءه، وهذا المقصد هو الذي اقتضى التعبير عن دينهم بطريق الموصولية في قولهم: ما كان يعبد آباؤنا إيماء إلى وجه الإنكار عليه، وإلى أنه حقيق بمتابعة دين آبائه.

"واجتلاب "كان" لتدل على أن عبادتهم أمر قديم مضت عليه العصور والتعبير بالفعل وكونه مضارعًا في قوله: "يعبد" ليدل على أن ذلك متكرر من آبائهم ومتجدد وأنهم لا يفترون عنه".(٣)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٧/٨.

(٢) انظر تفسير أبي السعود ٢٣٩/٣، فتح البيان في مقاصد القرآن ٣٩١/٤.

(٣) التحرير والتنوير ٢٠٧/٨.

قال الزمخشري:" ومعنى" أَجِئْتَنَا" لا يريدوا حقيقة المجيء، ولكن التعرّض بذلك والقصد، كما يقال: ذهب يشتمني، ولا يراد حقيقة الذهاب، كأنهم قالوا: أقصدتنا لنعبد الله وحده وتعرّضت لنا بتكليف ذلك؟" (١)

فاستعير فعل المجيء لمعنى القصد والاهتمام، "فقصدوا مما دل عليه المجيء زيادة الانكار عليه وتسفيهه على اهتمامه بأمر مثل ما دعاهم إليه.

وأسلوب الأمر في قوله: "فإننا" للتعجيز، والإتيان بالشيء حقيقته أن يجيء مصاحبًا إياه، ويستعمل مجازًا في الإحضار والإثبات كما هنا، والمعنى فعجل لنا ما تعدنا به من العذاب.

وعقبوا كلامهم بالشرط فقالوا: "إن كنت من الصادقين" أي: في الإخبار بنزول العذاب، والغرض من ذلك إظهار عجزه عن الإتيان بالعذاب، وجواب الشرط محذوف لدلالة المذكور عليه، أي: فأت به، أو تقديره: أتيت به وإلا فلست بصادق.(٢)

****

قال تعالى:" قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ " {الأعراف: ٧١}.

قوله:" قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ"

فالرجس هو الشيء الخبيث، أطلق مجازًا على خبث الباطن، أي فساد النفس، وعن ابن عباس أنه فسر الرجس هنا باللعنة، والجمهور فسروا الرجس

(١) الكشاف ٩٢/٢.

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٠٨/٨، تفسير أبي السعود ٢٣٩/٣.

بالعذاب ، وهو من الارتجاس الذي هو الإضطراب والغضب وإرادة الانتقام للتفخيم والتهويل.(١)

وقيل: "الرجس": السّخْطُ أو الرِيْنُ، فقوله: "قد وقع" على حقيقته من المضي، وإن كان العذاب فيكون من جعل الماضي، موضع المستقبل لتحقق وقوعه.(٢)

وتقديم " عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ" على فاعل الفعل، للمسارعة إلى بيان إصابة المكروه لهم، ولأن المجرورين متعلقان بالفعل فناسب إملاؤهما إياه.

وكذا تقديمهما على قوله "رجس" مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر؛ ولأن فيه نوع طول بما عطف عليه من قوله: "وغضب" فربما يخل تقديمهما بتجاوب النظم الكريم.(٣)

وقوله تعالى: "فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ "هذا غاية في التهديد والوعيد، أي: فانتظروا عاقبة أمركم في عبادة غير الله، وفي تكذيب رسوله.(٤)

والفاء في قوله: " فَانْتَظِرُوا" لتفريع هذا الانذار والتهديد السابق، لأن وقوع الغضب والرجس عليهم ومكابرتهم واحتجاجهم لما لا حجة له ينشأ عن ذلك التهديد بانتظار العذاب.

وصيغة الأمر للتهديد، والانتظار: افتعال من النظر بمعنى الترقب، كأن المخاطب أمر بالترقب فارتقب.

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٨ /٢١٠ ، تفسير أبي السعود ٣/٢٣٩.
(٢) البحر المحيط ٥/٨٥، انظر فتح البيان في مقاصد القرآن ٤/٣٩٣.
(٣) انظر التحرير والتنوير ٨/٢١٠، تفسير أبي السعود ٣/٢٣٩.
(٤) البحر المحيط ٥/٩٠.

ومن الايجاز بحذف المفعول قوله: " فَانْتَظِرُوا" فالمفعول محذوف دل عليه قوله: " رِجْسٌ وَغَضَبٌ" ، أي فانتظروا عقابًا.

وفصل جملة: " إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ" لأنها استئناف بياني؛ لأن تهديده إياهم يثير سؤالًا في نفوسهم أن يقولوا: إذا كنا ننتظر العذاب فماذا يكون حالك؛ فبين أنه ينتظر معهم(١)، فترك العاطف لما بين الجملتين من الاتصال؛ لأن الجملة الثانية واقعة في جواب سؤال مقدر.

****

قال تعالى: " فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ" {الأعراف: ٧٢}.

الفاء للتعقيب: أي فعجل الله استئصال عاد، ونجى هودًا والذين معه أي المؤمنين من قومه، فالمعقب به هو دابر عاد، وكان مقتضى الظاهر أن يكون النظم هكذا: فقطعنا دابر الذين كذبوا....إلخ ونجينا هودًا ..... إلخ ولكن جرى النظم على خلاف مقتضى الظاهر، للاهتمام بتعجيل الاخبار بنجاة هود ومن آمن معه.

وكذلك القول في تعريف الموصولية في قوله: " وَالَّذِينَ مَعَهُ"، والذين معه هم من آمن به من قومه، فالمعية هى المصاحبة في الدين وهى معيَّة مجازية.(٢)

"وقوله: " بِرَحْمَةٍ" أي عظيمة، " مِنَّا " أي من جهتنا متعلق بمحذوف هو نعت لرحمة، مؤكد لفخامتها الذاتية المنفهمة من تنكيرها بالفخامة الاضافية".(٣)

---

(١) انظرالتحرير والتنوير ٨/٢١٣.
(٢) المرجع السابق ٨/٢١٤.
(٣) تفسير أبي السعود ٣/٢٤٠.

قال ابن عاشور: "وقوله " بِرَحْمَةٍ مِنّا" الباء فيه للسببية، وتنكير برحمة للتعظيم، وكذلك وصفها بأنها من الله للدلالة على كمالها".(١)

وقوله تعالى: " وَقَطَعْنَا دَابِرَ الّذِينَ كَذّبُوا بِآيَاتِنَا" كناية عن استئصالهم بالهلاك والعذاب.

وقوله: " وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ" عطف على " كَذّبُوا" داخل معه في حكم الصلة، وفائدة عطفه الاشارة إلى أن كلتا الصلتين موجب لقطع دابرهم، وهى التكذيب والإشراك.

وهى أيضًا جملة مؤكدة لقوله: " كَذّبُوا بِآيَاتِنَا".(٢)

والمتأمل في هذه المحاورات التي دارت بين هود –عليه السلام– وبين قومه ، يراها زاخرة بالحجج الباهرة ، وبالنصائح البليغة ،وبالوضوح والصراحة من جانب هود وهو يجابه قومه بما هم عليه من قوة وغرور وبسطة في الرزق.

أما قومه فكان حوارهم يقوم على الاستهزاء بنبيهم ، ووصفه بالسفاهة والكذب ،كما يقوم على الإصرار على كفرهم وشركهم ، وعلى التحدي لنبيهم اعتمادا على قوتهم ،فكانت نهايتهم الهلاك.(٣)

****

(١) التحرير والتنوير ٨/٢١٤.
(٢) انظر البحر المحيط ٥/٩٠،التحرير والتنوير٨/٢١٥،تفسير أبي السعود ٣/٢٤٠.
(٣) انظر أدب الحوار ١٤٩.

حوار بين صالح -عليه السلام - وقومه

وأرسل الله -تعالى- بعد هلاك قوم هود -عليه السلام- رسوله "صالحا "-عليه السلام- وكانت رسالته إلى قبيلة ثمود ،الذين كانت مساكنهم بالحجر، وهو مكان بين بلاد الحجاز والشام ، وكانوا يعبدون الأوثان ، فنصحهم نبيهم صالح -عليه السلام- بأن يجعلوا عبادتهم لله تعالى وحده، وحدثت بينه وبينهم محاورات منها قوله تعالى :

" وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ(٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ(٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ(٧٩)"
{الأعراف:٧٣-٧٩}

"الأخوة هنا في القرابة، لأن نسبة نسبهم راجع إلى ثمود من جاثر، وكل واحدٍ من هؤلاء الأنبياء نوح وهود وصالح تواردوا على الأمر بعبادة الله والتنبيه على أنه لا إله غيره، إذ كان قومهم عابدي أصنام ومتخذي آلهة مع الله، كما كانت قريش والعرب، ففي هذه القصص توبيخهم وتهديدهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك من الهلاك المستأصل من العذاب"[١]

(١) البحر المحيط ٩١/٥.

وقوله تعالى:" وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا" عطف على ما سبق من قوله: " وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا" {الأعراف:٦٥}، موافق له في تقديم المجرور على المنصوب، وقد سبق القول في ذلك.

ولما كان الإخبار بإرساله -عليه السلام- إليهم مظنة لأن يسأل ويقال: فماذا قال لهم؟ قيل جوابًا عنه بطريق الاستئناف:" يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ"

وجملة: " قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ" كأنه جواب لقولهم :ائتنا ببينة تدل على صدقك، وأنك مرسل إلينا."ومِنْ رَبِّكُمْ" متعلق بجاءتكم، أو في موضع الصفة لآية على تقدير محذوف، أي: من آيات ربكم".(١)

والبينة: الحجة على صدق الدعوى.

وهذه إشارة إلى الناقة التي جعلها الله آية لصدق صالح، ولما كانت الناقة هي البينة كانت جملة:" هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً " منزلة من التي قبلها منزلة عطف البيان.(٢)

وقيل: " هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً" لما أنهم في قوله:" قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ" بين ما الآية فكأنه قيل له: ما البينة؟

قال: "هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ" وهذا استئناف مسوق لبيان البينة.(٣)

وإضافة الناقة إلى الله للتعظيم والتشريف والتخصيص،" فَذَرُوهَا" تفريع على كونها آيةٌ من آيات الله تعالى.(٤)

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٣ /٢٤١ ، البحر المحيط ٩٢/٥.
(٢) التحرير والتنوير ٢١٨/٨.
(٣) البحر المحيط ٥ /٩٢ ، تفسير أبي السعود ٢٤٢/٣.
(٤) تفسير أبي السعود ٢٤٢/٣، انظر فتح البيان في مقاصد القرآن ٣٩٦/٤.

وقوله تعالى:" وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ" نهى عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالشرّ الشامل لأنواع الأذية. ونُكرَ السوء مبالغةً في النهي، أي: لا تتعرضوا لها بشيء مما يسوءها أصلًا".(١)

وأسلوب النهي للتحذير من مس الناقة، والمعنى إن تمسوها بسوء يأخذكم العذاب، وهذا وعيد شديد لمن يمسها بسوء. والمس والأخذ هنا استعارة.

وأنيط النهي بالمس بالسوء لأن المسَّ يصدق على أقل اتصال شيء بالجسم، فكل ما ينالها مما يراد منه السوء فهو منهي عنه، حتى ولو كان شيئًا قليلًا جدًا.(٢)

****

قال تعالى: " وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ" {الأعراف:٧٤}

القول فيه كالقول في قوله: " إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ " {الأعراف:٦٩} وقد سبق في قصة نوح.

"فقد ذكّر صالح قومه بما ذكر به هود قومه، فذكر أولًا نعمًا خاصَّة وهي جعلهم خلفاء بعد الأمة التي سبقتهم، وذكر هود لقومه ما اختصوا به من زيادة البسطة في الخلق، وذكر صالح لقومه ما اختصوا به من اتخاذ القصور من السهول، ونحت الجبال بيوتًا، ثم ذكرا نعمًا عامةً بقولها(٣) " فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ".

(١) تفسير أبي السعود ٢٤٢/٣.
(٢) انظر التحرير والتنوير ٢١٩/٨.
(٣) البحر المحيط ٩٣/٥.

وتفريع الأمر بذكر " آلَاءَ اللّهِ " على قوله: " وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ " تفريع الأعم على الأخص، لأنه أمرهم بذكر نعمتين، ثم أمرهم بذكر جميع النعم التي لا يحصونها، فكان هذا بمنزلة التذييل".(١)

****

قال تعالى: " قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ " {الأعراف:٧٥}

"عدل الملأ الذين استكبروا عن مجادلة صالح -عليه السلام- إلى اختبار تصلب الذين أمنوا به في إيمانهم، ومحاولة إلقاء الشك في نفوسهم، ولما كان خطابهم للمؤمنين مقصودًا به إفساد دعوة صالح -عليه السلام- كان خطابهم بمنزلة المحاورة مع صالح -عليه السلام-، فلذلك فصلت جملة حكاية قولهم على طريقة فصل جمل المحاورات".(٢)

وقوله: "أَتَعْلَمُونَ" استفهام على معنى الاستهزاء والاستخفاف والسخرية".(٣)

قال ابن عاشور: والاستفهام في " أَتَعْلَمُونَ" للتشكيك والإنكار، أي: ما نَظنّكمُ آمنتم بصالح -عليه السلام- عن علمٍ بصدقه، ولكنكم اتبعتموه عن عمى وضلال غير موقنين.(٤)

وفي قولهم " مِنْ رَبِّهِ" اختصاص بصالح، ولم يقولوا من ربنا ولا من ربكم.

---

(١) التحرير والتنوير ٨/٢٢٠.
(٢) المرجع السابق ٨/٢٢٢.
(٣) انظر البحر المحيط ٥/٩٣، تفسير ابن عطية ٢/٤٢٣، فتح البيان في مقاصد القرآن ٤/٣٩٦، الكشاف ٢/٩٧.
(٤) التحرير والتنوير ٨/٢٢٣.

وقوله تعالى: " قَالُوا إِنّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ" أي: أجابوهم بالأسلوب الحكيم بالإيمان برسالته.(١)

"عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا نعم، أو نعلم أنه مرسلٌ منه تعالى، مسارعة إلى تحقيق الحق، وإظهار مالهم من الإيمان الثابت المستمر، الذي تنبئ عنه الجملة الاسمية، وتنبيها على أن أمر ارساله من الظهور بحيث لا ينبغي أن يسأل عنه، وإنما الحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به"(٢)

وأكد الخبر بحرف "إن" لإزالة ما توهموه من الشك الذين استكبروا في صحة إيمانهم.

قال ابن عاشور: " والعدول في حكاية جواب الذين استضعفوا من أن يكون بنعم إلى أن يكون بالموصول صلته؛ لأن الصلة تتضمن إدماجًا بتصديقهم بما جاء به صالح نحو التوحيد، وإثبات البعث، والدلالة على تمكنهم من الإيمان بذلك كله، بما تفيده الجملة الاسمية من الثبات والدوام وهذا من بليغ الإيجاز"(٣).

****

وقوله تعالى:" قَالَ الّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنّا بِالّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ" {الأعراف: ٧٦} على وجه المقابلة، ووضعوا "آمنتم به" موضع "أرسل به" ردًا لما جعلوه معلومًا مسلمًا.(٤)

---

(١) البحر المحيط ٩٤/٥ ،انظر صفوة التفاسير ٤٥٦/٨.

(٢) تفسير أبي السعود ٢٤٣/٣، انظر البحر المحيط ٩٣/٥، فتح البيان في مقاصد القرآن ٣٩٦/٤، الكشاف ٩٧/٢.

(٣) التحرير والتنوير ٢٢٣/٨.

(٤) تفسير البيضاوي ٢١/٣.

وقول الذين استكبروا هذا يدل على تصلبهم في كفرهم وثباتهم فيه، إذ صيغ كلامهم بالجملة الأسمية المؤكدة.

والموصول في قولهم: " بِالّذِي آمَنْتُمْ بِهِ" هو ما أرسل به صالح -عليه السلام-، وهذا كلام جامع لرد ما جمعه كلام المستضعفين حين قالوا: "إن بما أرسل به مؤمنون" فهو من بلاغة القرآن في حكاية كلامهم وليس من بلاغة كلامهم.

ثم إن تقديم المجرورين في قوله: " بِمَا أُرْسِلَ بِهِ" و " بِالّذِي آمَنْتُمْ بِهِ" على عامليهما يجوز أن يكون من نظم حكاية كلامهم، وليس له معادل في كلامهم المحكي، وإنما هو لتتقوَّم الفاصلتان. وقرأ الجمهور: قال الملأ بدون عطف جريا على طريقة أمثاله في حكاية المحاورات.(١)

****

قال تعالى:" فَعَقَرُوا النّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ" {الأعراف: ٧٧}

وقوله:" فَعَقَرُوا النّاقَةَ" الفاء للتعقيب لحكاية قول الذين استكبروا: " إِنّا بِالّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ" {الأعراف: ٧٦}، أي قالوا ذلك فعقروا.

والعُقْرُ: حقيقته الجرح البليغ، وأطلق على النحر على وجه الكناية .

وأسند العقر إلى الجميع مع كون العاقر واحدًا منهم؛ لأنهم راضون بذلك موافقون عليه، وفيه من تهويل الأمر وتفظيعه، بحيث أصابت غائلته الكل ما لا يخفى.

والعتو: تجاوز الحد في الكبر، وتعديته ب "عن" لتضمنه معنى الإعراض.

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٨/٢٢٣-٢٢٤.

"وأمر ربهم" هو ما أمرهم به على لسان صالح -عليه السلام- من قوله: " وَلَا تَمَسُّوهَا" {الأعراف:٧٣}، فعبر عن النهي بالأمر؛ لأن النهي عن الشيء مقصود منه الأمر بفعل ضده.(١)

وقوله:" وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ" {الأعراف: ٧٧} أي: جئنا يا صالح بما تعدنا من عذاب الذي تخوفنا به إن كنت يا صالح حقًا رسولًا، وقالوا ذلك استهزاءً به وتعجيزًا.(٢)

فاسلوب الأمر في قولهم "ائتنا" الغرض منه التعجيز لصالح -عليه السلام-، والاستهزاء به.

"وأرادوا: " بِمَا تَعِدُنَا" العذاب الذي توعدهم به مجملًا، وجئ بالموصول للدلالة على أنهم لا يخشون شيئًا مما يريده من الوعيد المجمل، فالمراد بما تتوعدنا.

وقد فرضوا كونه من المرسلين بحرف "إن" الدال على الشك في حصول الشرط ، أي إن كنت من الرسل عن الله".(٣)

****

قال تعالى: " فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ" {الأعراف: ٧٨-٧٩}

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٢٦/٨.،انظر فتح البيان في مقاصد القرآن ٤/ ٣٩٩

(٢) صفوة التفاسير ٤٥٦/٨، انظر تفسير أبي السعود ٢٤٣/٣، فتح البيان في مقاصد القرآن ٢٩٩/٤.

(٣) التحرير والتنوير ٢٢٦/٨، انظر الكشاف ٩٧/٢.

قوله:" فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ" " الفاء في " فأخَذَتْهُمُ" للتعقيب، فيمكن العطف بها على قولهم "ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا" على تقدير قرب زمان الهلاك من زمان طلب الإتيان بالوعد، ولقرب ذلك كان العطف بالفاء".(١)

"وجملة: " فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ" معترضة بين جملة " فَعَقَرُوا النَّاقَةَ" وبين جملة " فَتَوَلَّى عَنْهُمْ" {الأعراف: ٧٩}، أريد باعتراضها التعجيل بالخبر عن نفاذ الوعيد فيهم، بِعَقبِ عُتوهم، فالتعقيب عُرْفِيَّ، أي لم يكن بين العُقر وبين الرجفة زمن طويل . وأصل الأخذ: تناول شيء باليد، ويستعمل مجازًا في مِلْكِ الشيء، بعلاقة اللُّزوم، ويستعمل أيضًا في القهر".(٢)

والرجفة: هى الزلزلة الشديدة.

وقوله:" فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ" استعارة مكنية، حيث صور الرجفة شيئًا ماديًا تتحرك حركة الإحاطة بهم، إحاطة الآخذ فتهلكهم جميعًا.

والجاثم: المكب على صدره في الأرض مع قبض ساقية كما يجثو الأرنب.

ويجوز أن يكون المراد تشبيه حالة وقوعهم على وجوهم حين صعقوا، بحالة الجاثم، على سبيل الاستعارة التمثيلية، تفظيعًا لهيئة ميتتهُم.

والمعنى: أنهم أصبحوا جثثًا هامدةٌ ميتةٌ على أبشع منظر لميتٍ.(٣)

وقوله "فتولى عنهم" الفاء تدل على التعقيب، فدل على أنه حصل هذا التولي بعد هلاكهم، ومشاهدة ما جرى عليهم، فيكون الخطاب على سبيل التفجع عليهم، والتحسر لكونهم لم يؤمنوا فهلكوا.(٤)

---

(١) البحر المحيط ٩٧/٥،انظر مفاتيح الغيب ١٨٣/١٣.
(٢) التحرير والتنوير ٢٢٧/٨.
(٣) انظر التحرير والتنوير ١٢٧/٨.
(٤) انظر البحر المحيط ٩٨/٥، انظر تفسير أبي السعود ٢٤٤/٣، انظر مفاتيح الغيب ١٨٥/١٣، فتح البيان في مقاصد القرآن ٤٠٠/٤.

وقوله: " يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ" مستعملًا في التوبيخ والتسجيل عليهم ، وقوله: " لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ" تقدم في قصة نوح {الأعراف:٦٢}،واللام في "لقد" لام القسم، وتقدم في {الأعراف: ٥٩}.

وكما كان قوله: " أَبْلَغْتُكُمْ" ماضيًا عطف عليه ماضيًا، فقال: "ونصحت"، والاستدراك ب"لكن" ناشيء عن قوله :" لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ" لأنه مستعمل في التبرأ من التقصير في معالجة كفرهم.

وجاء لفظ "الناصحين" عامًا أي: أي شخص نصح لكم لم تقبلوا في أي شيءٍ نصح لكم، وذلك مبالغة في ذمهم.(١)

"وصيغة المضارع في قوله تعالى:" وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ" حكاية حال ماضية أي: شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم".(٢) فأراد بذلك كناية عن رفضهم النصيحة .

****

حوار بين لوط -عليه السلام- و قومه

وينتقل القرآن الكريم إلى نموذج أخر من المحاورات التي دارت بين بعض الأنبياء وبين أقوامهم، وهي المحاورة التي دارت بين لوط -عليه السلام- وقومه، والتي يحذرهم فيها من الاستمرار في الفاحقال تعالى: " وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ(٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ(٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ(٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ

(١) انظر البحر المحيط ٩٨/٥ ،انظر التحرير والتنوير ٢٢٨/٨.
(٢) تفسير أبي السعود ٢٤٤/٣.

كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ(٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ(٨٤)" {الأعراف:٨٠-٨٤}

" وَلُوطًا" منصوب بفعل مضمر معطوف على الأنبياء قبله والتقدير: "وأرسلنا لوطًا ".(١)

وهو من الإيجاز بحذف الفعل ، "وإذ" ظرف متعلق ب"أرسلنا" المقدر يعني: أرسلناه وقت قال قومه، وجعل وقت القول ظرفًا للإرسال ؛لإفادة مبادرته بدعوة قومه إلى ما أرسله الله به.

والاستفهام في قوله "أتأتون" إنكاري توبيخيٌّ تقريعيٌّ، أي: أتفعلون تلك الفعلة المتناهية في القبح المتمادية في الشرية والسوء، والإتيان المستفهم عنه مجاز في التلبس والعمل، أي أتعملون الفاحشة، وكنى بالإتيان عن العمل المخصوص، وهى كناية مشهورة.(٢)

وقوله تعالى:" مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ".

السَّبق حقيقته: وصول الماشي إلى مكان مطلوب له ولغيره قبل وصول غيره ،ويستعمل مجازًا في التقدم في الزمان، أي: الأولية والابتداء، وهو المراد هنا، والمقصود أنهم سبقوا الناس بهذه الفاحشة.(٣)

وقوله:" مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ" "من" الأولى زائدة لتأكيد النفي وإفادة الاستغراق، والثانية للتبعيض والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ والتقريع.

---

(١) انظر البحر المحيط ٩٩/٥، تفسير أبي السعود ٢٤٤/٣.

(٢) انظر تفسير أبي السعود ٢٤٤/٣، التحرير والتنوير ٢٣٠/٨.

(٣) البحر المحيط ٩٩/٥، فتح البيان في مقاصد القرآن ٤٠٢/٤، تفسير البيضاوي ٢٢/٣، التحرير والتنوير ٢٣٠/٨.

أو مسوقةٌ جوابًا عن سؤال مقدَّر: كانه قيل من جهتهم: لم لا نأتيها؟ فقيل: بيانًا للعلة وإظهارًا للزاجر: " مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ" لغاية قبحها وسوء سبيلها فكيف تفعلونها.(١)

******

قال تعالى: " إِنّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ" {الأعراف: ٨١}

وقوله: " إِنّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ" خبرٌ مستأنف لبيان تلك الفاحشة، وهو تأكيد للإنكار السابق، وتشديد للتوبيخ، في زيادة – إن و اللام– مزيد توبيخ وتقريع، كأن ذلك أمر لا يتحقق صدوره عن أحد فيؤكد تأكيدًا قويًا.

وفي إيراد لفظ الرجال دون الغلمان والمرادان ونحوهما، مبالغة في التوبيخ.(٢)

قال ابن عاشور: وجملة "إِنّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ" مبنية لجملة: " أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ"، والتأكيد بإن واللام – كناية عن ا لتوبيخ لأنه مبنيٌّ على تنزيلهم منزلة من ينكر ذلك، لكونهم مسترسلون عليه غير سامعين لنهي الناهي.(٣)

والإتيان كناية عن عمل الفاحشة .

وقوله " شَهْوَةً" في التقييد بها وصفهم بالهيمية الصِّرْفة، ويجوز أن يكون المراد الإنكار عليهم وتقريعهم على اشتهائهم تلك الفعلة الخبيثة المكروهة.(٤)

---

(١) انظر الكشاف ٩٩/٢، تفسير أبي السعود ٢٤٤/٣، تفسير البيضاوي ٢٢/٣، فتح البيان في مقاصد القرآن ٤٠٢/٤، مفاتيح الغيب ١٨٦/١٣.

(٢) تفسير أبي السعود ٢٤٥/٣.،انظر الكشاف ٢/ ٩٩ ،البحر المحيط ١٠٠/٥،تفسير البيضاوي ٤٠٢/٣.

(٣) التحرير والتنوير ٢٣١/٨.

(٤) تفسير أبي السعود ٢٤٥/٣.

وقوله: " بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ" بل للإضراب الإنتقالي، للإنتقال من غرض الإنكار إلى غرض الذم والتحقير والتنبيه إلى حقيقة حالهم، ووصفهم بالإسراف بطريقة الجملة الاسمية الدالة على الثبات، أي: أنتم قوم تمكن منهم الإسراف في الشهوات.

عطف جملة: " وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ" على جملة: " قَالَ لِقَوْمِهِ" {الأعراف: ٨٠} والمعنى: أنهم أقحموا عن ترويج شنعتهم والمجادلة في شأنها، وابتدروا بالتآمر على إخراج لوط -عليه السلام-وأهله من القرية.(١)

والتعبير "بما وكان" للمبالغة في الرد حيث لم يمهلوا في الجواب زمانًا بل أعجلوه بالجواب بسرعة.(٢)

"وقوله: " إِلَّا أَنْ قَالُوا" استثناء مفرَّغ من أهم الأشياء أي: ما كان جوابًا من جهة قومه شيء من الأشياء إلا قولهم أي: لبعضهم الآخرين المباشرين للأمور معرضين عن مخاطبته -عليه السلام- "أخرجوهم" أي: لوطًا ومن معه من أهله المؤمنين.

" مِنْ قَرْيَتِكُمْ" أي: إلا هذا القول الذي يستحيل أن يكون جوابًا لكلام لوط -عليه السلام-.

وليس المراد أنه لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن مقالات لوط -عليه السلام- مواعظه إلا هذه المقالة الباطلةٌ، كما هو المتسارع إلى الإفهام، بل إنه لم يصدر عنهم في المرة الأخيرة من مرات المحاورات الجارية بينهم وبينه -عليه السلام- إلا هذه الكلمة الشنيعة، وإلا فقد صدر عنهم قبل ذلك كثير من الكلمات حسبما حكى عنهم في سائر السور الكريمه، وهذا هو الوجه في نظائره الواردة بطريق القصر."(٣)

---

(١) التحرير والتنوير٨/٢٣٢- ٢٣٤ ، انظر تفسير أبي السعود ٣/٢٤٥.
(٢) انظر البحر المحيط ٥/١٠١.
(٣) تفسير أبي السعود ٣/٢٤٦.

والضمير المنصوب في قوله : " أَخْرِجُوهُمْ" عائد على محذوف علم من السياق، وهم لوط عليه السلام وأهلُهُ: وهم زوجه وابنتاه.(١)

وقوله تعالى: " إِنّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهّرُونَ" تعليل للأمر بالإخراج، ووصفهم بالتطهير للاستهزاء والسخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش والخبائث،والافتخار بما هم فيه من القذارة.(٢)

والتطهر تكلف الطهارة، وحقيقتها النظافة، وتطلق الطهارة مجازًا على تزكية النفس والحذر من الرذائل وهو المراد هنا، وتلك صفة كمال.

وقيل أن هذا النوع في علم البلاغة يسمى "المدح بما يشبه الذم" فهذا التعريض بما يوهم الذم هو مدح، ولذلك قال ابن عباس: عابوهم بما يمدح به.(٣)

"وجيء بالخبر جملة فعلية مضارعية لدلالتها على أن التطهر متكررٌ منهم و متجدد، وذلك أدعى لمنافرتهم طباعهم والغضب عليهم".(٤)

****

قال تعالى:" فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ" {الأعراف: ٨٣-٨٤}

"وقوله: " فَأَنْجَيْنَاهُ" مقدم من تأخير، والتقدير: فأمطرنا عليهم مطرًا وانجيناه وأهله، فقدم الخبر بإنجاء لوط -عليه السلام- على الخبر بإمطارهم مطر العذاب، لقصد إظهار الاهتمام بأمر انجاء لوط -عليه السلام-، ولتعجيل المسرة للسامعين من المؤمنين، فتطمئن قلوبهم لحسن عواقب أسلافهم من مؤمني الأمم الماضية.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٥/٨.
(٢) تفسير أبي السعود ٢٤٦/٣، وانظر الكشاف ٢٩٩، انظر مفاتيح الغيب ١٩٠/١٣.
(٣) انظر التحرير والتنوير ٢٣٥/٨ ، البحر المحيط ١٠٢/٥ بتصرف.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٢٣٥ .

وتنكيرُ: " مَطَرًا" للتعظيم والتعجيب أي: مطرًا عجيبًا من شـأنه أن يهلـك القرى".(١)

وقوله تعالى: " فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ" خطاب لكل من يتأتى منه التأمل والنظر، تعجيبًا من حالهم، وتحذيرًا من أعمالهم.(٢)

وأسلوب الأمر في قوله: " فَانْظُرْ " للإرشاد والعبرة والعظة.

****

حوار بين شعيب -عليه السلام- وقومه:

ومن المحاورات التي وردت في السورة الكريمة، حوار شـعيب –عليـه السلام – مع قومه، وقد أمرهم بعبادة الله ونهاهم عن عبادة غيره، ونهاهم عـن البخس في الكيل والميزان، كما نهاهم عن الإفساد في الأرض .

قال تعالى: " وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ(٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ(٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا

(١) المرجع السابق ٢٣٨/٨.
(٢) تفسير أبي السعود ٢٤٦/٣، انظر البحر المحيط ١٠٢/٥.

افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ(٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ(٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ(٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ(٩٣) " {الأعراف: ٨٥-٩٣}

ومدين: أمَّةٌ سُميت باسم جدها مدين ابن ابراهيم -عليه السلام- وشعيب -عليه السلام - هو رسول لأهل مدين، وهو من أنفسهم، والتقدير: "وأرسلنا إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا" وهذه الأخوة كانت في النسب لا في الدين،(١) وإيجاز الحذف هنا بحذف كلمة "أرسلنا".

"وقوله: " وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا" عطف على قوله: " وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا"، و"قال" استئناف مبنيٌ على سؤال نشأ عن حكاية إرساله إليهم كأنَّه قيل: فماذا قال لهم؟ فقيل: "قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ". وقوله: " قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ" أي معجزة، وقوله تعالى: " مِنْ رَبِّكُمْ" متعلق "بجَاءَتْكُمْ" أو محذوف هو صلةُ لفاعله، مؤكدة لفخامته الذاتية المستفادة من تنكيره بفخامته الإضافية، أي: بينةٌ عظيمة ظاهرةٌ كائنةٌ من ربكم ومالك أموركم."(٢)

"والفاء في قوله: " فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ" للتفريع على مضمون معنى بينةٌ، لأن البينة تدلُ على صدقه، فلما قام الدليل على صدقه، وكان قد أمرهم بالتوحيد بادىء بدءٍ ،لما فيه من صلاح القلب، شرع يأمرهم بالشرائع من الأعمال بعد الإيمان".(٣)

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٣٩/٨، وانظر مفاتيح الغيب ١٩٢/١٣.
(٢) تفسير أبي السعود ٢٤٦/٣.
(٣) التحرير والتنوير ٢٣٩/٨.

وقوله تعالى:" وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا" "بالكفر والحيف بعدما أصلح أمرها وأهلها الأنبياء وأتباعهم بإجراء الشرائع، أو أصلحوا فيها، وإضافته إليها كإضافة مكر الليل والنهار".(١)

"والإشارة ب"ذلكم" إلى مجموع ما تضمنه كلامه، أي: ذلك المذكور، ولذا أفرد اسم الإشارة والمذكور عبادة الله وحده، وإيفاء الكيل والميزان، وتجنب بخس أشياء الناس، وتجنب الفساد في الأرض، وقد أخبر عنه بأنه خيرٌ لهم. فالتنكير في قوله: خيرٌ للتعظيم والكمال لأنه جامع خيري الدنيا والآخرة.

وقوله:" إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" شرط مقيد لقوله: " ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ" والمؤمنون لقب للمتصفين بالإيمان بالله وحده، والمعنى أنه يكون خيرًا إن كنتم مؤمنين بالله وحده ، فهو رجوعٌ إلى الدعوة للتوحيد بمنزلة رد العجز على الصدر في كلامه".(٢)

******

قال تعالى:" وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ" {الأعراف:٨٦}

قوله تعالى: " وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ" هذا الأصل الثالث من دعوته، وهو النهي عن التعرض للناس دون الإيمان.

والقعود مستعمل كناية عن لازمه، وهو الملازمة والاستقرار.(٣)

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/٢٤٦.

(٢) التحرير والتنوير ٨/٢٤٥.

(٣) المرجع السابق ٨/٢٤٥.

"وقوله تعالى: " بِكُلِّ صِرَاطٍ" "يقال قعد له بمكان كذا وعلى مكان كذا، وفي مكان كذا، وهذه الحروف تتعاقب في هذه المواضع لتقارب معانيها، فإنك إذا قلت قعد بمكان كذا، فالباء للإلصاق، وهو قد التصق بذلك المكان.

وأما قوله تعالى: " تُوعِدُونَ" فمحله ومحل ما عطف عليه النصب على الحال، والتقدير: " ولا تقعدوا موعدين ولا صادين عن سبيل الله ولا أن تبغوا عوجًا في سبيل الله" والحاصل: أنه نهاهم عن القعود على صراط الله حال الاشتغال بأحد هذه الأمور الثلاثة".(١)

" وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" أي: السبيل الذي قعدوا عليه، فوضع المظهر موقع المضمر، بيانًا لكل صراط، ودلالةً على عظم ما يصدون عنه وتقبيحًا لما كانوا عليه".(٢)

"والصد" يمكن أن يكون حقيقة في عدم التمكين من الذهاب إلى الرسول ليسمع كلامه، ويمكن أن يكون مجازًا عن الإبعاد من الصَّادّ بوجه.

ومفعول "توعدون" ضمير محذوف للإيجاز.(٣)

قال الزمخشري: "فإن قلت: إلام يرجع الضمير في "آمن به"؟قلت: إلى كل صراط، تقديره: توعدون من آمن به وتصدون عنه، فوضع الظاهر الذي هو سبيل الله موضع الضمير، زيادة في تقبيح أمرهم، ودلالة على عظم ما يصدون عنه"(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب ١٩٦/١٣.

(٢) تفسير أبي السعود ٢٤٧/٣، وانظر تفسير البيضاوي ٢٣/٣.

(٣) انظر البحر المحيط ١٠٧/٥.

(٤) الكشاف ١٠١/٢.

"والتعبير بالماضي في قوله: "من آمن به" عوضًا عن المضارع، حيث المراد بمن آمن قاصدُ الإيمان، فالتعبير عنه بالماضي لتحقيق عزم القاصد على الإيمان ، فهو لولا أنهم يصدونه لكان قد آمن".(١)

وقوله تعالى:" وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ" "هذا تهديد لهم وتذكير بعاقبة من أفسد قبلهم، وتمثيل لهم بمن حل به العذاب من قوم نوح وصالح ولوط".(٢)

وقوله تعالى:" وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ" المقصود منه أنهم إذا تذكروا نعم الله عليهم انقاضوا وأطاعوا.

وقوله تعالى: " وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ" "المقصود منه أنهم إذا عرفوا أن عاقبة المفسدين المتمردين ليست إلا الخزي والنكال، احترزوا عن الفساد والعصيان وأطاعوا، فكان المقصود من هذين الكلامين حملهم على الطاعة بطريق الترغيب أولًا، والترهيب ثانيًا"(٣)

قال تعالى: وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ" {الأعراف: ٨٧}

"هذا الكلام من أحسن ما تلطف به في المحاورة، إذ برز المتحقق في صورة المشكوك فيه، وذلك أنه قد آمن به طائفة بدليل قول المستكبرين عن الإيمان " لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ" {الأعراف: ٨٨}.

وهو أيضًا من بارع التقسيم إذ لا يخلو قومه من القسمين، والذي أرسل به هنا ما أمرهم به من إفراد الله تعالى بالعبادة ، وإيفاء الكيل والميزان، ونهاهم

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٧/٨.
(٢) البحر المحيط ١٠٩/٥.
(٣) مفاتيح الغيب ١٩٧/١٣.

عنه من البخس والإفساد. ومتعلق "لم يؤمنوا" محذوف دل عليه ما قبله ، والتقدير: "لم يؤمنوا به".(١)

"وجملة: "وهو خير الحاكمين" تذييل بالثناء على الله، بأن حكمه عدل محض لا يحتمل الظلم عمدًا ولا خطأ، وغيره من الحاكمين يقع منه أحد الأمرين أو كلاهما.

وخير: اسم تفضيلٍ أصله "أخير" فخففوه لكثرة الاستعمال"(٢)

****

قال تعالى: " قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ" {الأعراف: ٨٨}

فصل جملة:" قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ"" لوقوعها في المحاورة وهى : استئناف بياني مبني على سؤال :كأنه قيل: فماذا قالوا بعد ما سمعوا هذه المواعظ من شعيب(٣) -عليه السلام- فقيل: قال أشراف قومه المستكبرون قاصدين استتباعه -عليه السلام- فيما هم فيه، وأتباعه المؤمنين، واجترءوا على إكراههم عليه بوعيد النفي ، وخاطبوه بذلك على طريقة التوكيد القسمي: " لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ" بنسبة الإخراج إليه -عليه السلام-أولا، وإلى المؤمنين ثانيًا بعطفهم عليه تنبيهًا على أصالته -عليه السلام- في الإخراج ،

وتبعيتهم له فيه، كما ينبئ عنه قوله تعالى " مَعَكَ" فإنه متعلق بالإخراج لا بالإيمان، ومتعلق أمنوا محذوف، أي بك ؛ لأنهم لا يصفونهم بالإيمان الحق في اعتقادهم.(٤)

---

(١) البحر المحيط ١٠٩/٥.
(٢) التحرير والتنوير ٥/٩.
(٣) انظر فتح البيان في مقاصد القرآن ٤٠٨/٤، التحرير والتنوير ٧/٩.
(٤) انظر تفسير أبي السعود ٢٤٨/٣، انظر التحرير والتنوير ٦/٩.

وخطابهم إياه بالنداء جارٍ على طريقة خطاب الغضب ، وتوسيط النداء باسمه العلمي بين المعطوفين لزيادة التقرير والتهديد الناشئة عن غاية الوقاحة والطغيان، أي "والله لنخرجنِك وأتباعك من قريتنا" بغضًا لكم ودفعًا لفتنتكم.(١)

وإيثار وصفهم بالاستكبار هنا دون الكفر، لمناسبة مخاطبتهم شعيبًا بالإخراج أو الإكراه على اتباع دينهم، وذلك من فعل الجبارين أصحاب القوة.

فقد اقسموا على أحد الأمرين ، إخراج شعيب وأتباعه ، أو عودتهم في ملتهم ، وفي الإخراج والعود طباق معنوي يؤكد المعنى ويقويه.

وقوله تعالى: " أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا" "عطف على جواب القسم ، أي: والله ليكونن أحد الأمرين.(٢)

قال ابن عاشور:" وقد جعلوا عود شعيب والذين معه إلى ملة القوم مقسمًا عليه فقالوا: أو لتعوُدُنَّ ولم يقولوا: "لنخرجنكم من أرضنا أو تعُودُنَّ في ملتنا" ؛لأنهم أرادوا ترديد الأمرين في حيز القسم، لأنهم فاعلون أحد الأمرين لا محالة".(٣)

فصل جملة:" قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ" لوقوعها في سياق المحاورة وهو استئناف كما سبق ، :كأنه قيل: فماذا قال لهم –عليه السلام– ردًا على تهديدهم له وللمؤمنين، قال –عليه السلام – ردًا لمقالتهم الباطلة وتكذيبًا لهم في أيمانهم الفاجرة: " أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ" على أن الهمزة لإنكار الوقوع ونفيه لا لإنكار الواقع واستقباحه، ويجوز أن يكون الاستفهام فيه باقيًا على حاله.(٤)

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٦/٩، فتح البيان في مقاصد القرآن ٤٠٨/٤، تفسير أبي السعود ٢٤٨/٣.
(٢) انظر التحرير والتنوير ٦/٩ ، البحر المحيط ١١٢/٥ ،انظر تفسير أبي السعود ٢٤٨/٣.
(٣) التحرير والتنوير ٦/٩.
(٤) انظر تفسير أبي السعود ٢٤٨/٣، البحر المحيط ١١٢/٥، مفاتيح الغيب ١٩٩/١٣، فتح البيان في مقاصد القرآن ٤٠٨/٤.

قال الزمخشري:" الهمزة للاستفهام، والواو واو الحال، تقديره: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا، ومع كوننا كارهين، وما يكون لنا، وما ينبغي لنا، وما يصح لنا."(١)

قال ابن عاشور: "الاستفهام مستعمل في التعجب تعجبًا من قولهم " أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا" المؤذن ما فيه من المؤكدات بأنهم يكرهونهم على المصير إلى ملة الكفر، وذلك التعجُّبُ تمهيدُ لبيان تصميمه ومن معه على الإيمان، ليعلم قومه أنه أحاط خبرًا بما أرادوا من تخييره والمؤمنين معه بين الأمرين: الإخراج أو الرجوع إلى ملة الكفر، شأن الخصم اللبيب الذي يأتي في جوابه بما لا يغادر شيئًا مما أراده خصمه في حواره."(٢)

******

قال تعالى: "قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ" {الأعراف: ٨٩}

قوله تعالى: " قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ" التي هي الشرك، والجملة استئناف إخبار فيه معنى التعجب، كأنهم قالوا:" ما أكذبنا على الله إن عدنا في الكفر بعد الاسلام" أو أنه جواب قسم محذوف ، والتقدير" والله لقد افترينا على الله كذبًا".(٣)

وقد جاء بضمير المتكلم المشارك في كل من قوله: "افترينا – وعدنا – ونجانا – ونعود – وربنا – وتوكلنا " لتأكيد صدق الذين آمنوا به.(٤)

---

(١) الكشاف ١٠٣/١٣.
(٢) التحرير والتنوير ٧/٩.
(٣) انظر الكشاف ١٠٣/١٣، فتح البيان في مقاصد القرآن ٤٠٨/٤.
(٤) انظر التحرير والتنوير ٨/٩.

قال ابن عاشور: " وإنما الإشكال في قول شعيب " إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ" فوجهُهُ أنّه أجراه على المشاكلة والتغليب، وكلاهما مُصَحِّحٌ لاستعمال لفظ العود في غير معناه بالنسبة إليه خاصَّةً، وقد تولَّى شعيب الجواب عمَّن معه من المؤمنين ليقينه بصدق إيمانهم."(١)

وقوله: " إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا" " المراد أن الله نجى قومه من تلك الملة ، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم وإن كان بريئًا منه، إجراء للكلام على حكم التغليب".(٢)

وقوله: " إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا" الاتيان بوصف الرب وإضافته إلى ضمير المتكلم المشارك: إظهارٌ لحضرة الإجلال، وتعريض أن الله مَوْلى الذين آمنوا.

وقوله:" وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا" تفويض لعلم الله ، أي: إلا أن يشاء ذلك، فهو أعلم بمراده منا، وإعادة وصف الربوبية إظهارٌ في مقام الإضمار، لزيادة إظهار وصفه بالربوبية، وتأكيد التعريض المتقدم، حتى يصير كالتصريح. وانتصب "علمًا" على التَّمييز المحَول عن الفاعل لقصد الإجمال ثم التفصيل للاهتمام.

والسعةُ: مستعملة مجازًا في الإحاطة بكل شيء، لأن الشيء الواسع يكون أكثر إحاطة.(٣)

وقوله: " عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا" "أي في أن يثبتنا على ما نحن عليه من الإيمان، ويتم علينا نعمته بإنجائنا من الإشراك بالكلية، وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار للمبالغة في التضرع والجوار."(٤)

---

(١) التحرير والتنوير ٧/٩.
(٢) مفاتيح الغيب ١٩٩/١٣.
(٣) انظر التحرير والتنوير ١٠/٩-١١.
(٤) تفسير الشعراوي ٤٢٥٠/٥٣.

وتقديم الجار والمجرور على فعل "توكلنا" يفيد القصر، أي عليه لا على غيره، فقد قصر صفة التوكل على الله – سبحانه وتعالى – قصر صفة على موصوف. وأسلوب الأمر في قوله تعالى :" رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ" الغرض منه الدعاء، والمعنى :احكم يا رب بيننا وبين قومنا بالحق بنصر الإيمان وهزيمة الكفر.

وقوله: " وأنت خير الفاتحين " ،هو كقوله :"وهو خير الحاكمين "(الأعراف ٨٧)

إي: وأنت خير الناصرين ،وخير الحاكمين هو أفضل أصل هذا الوصف .

وهو تذييل مقرر لمضمون ما قبله على المعنيين.(١)

****

وقوله تعالى: " وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ" {الأعراف: ٩٠}

عطفت جملة: "وقال الملأ" ولم تفصل كما فصلت التي قبلها لانتهاء المحاورة المقتضية فصل الجمل في حكاية المحاورة، فعطفت على قوله تعالى: " وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ استكبروا مِنْ قَوْمِهِ" أى: قال أشرافهم الذين أصروا على الكفر لعامة قومهم الباقين معهم على الكفر، بعد ما شاهدوا صلابة شعيب –عليه السلام– ومن معه من المؤمنين في الإيمان على طريقة التوكيد القسمي والله "لئن اتبعتم شعيبًا " ودخلتم في دينه وتركتم دين آبائِكم "إنكم إذا لخاسرون".(٢)

وذكر "الملأ" إظهار في مقام الإضمار لبعد المعاد، وإنما وصف الملأ بالموصول وصلته دون أن يكتفي بحرف التعريف المقتضي أن "الملأ" الثاني هو

(١) انظر التحرير والتنوير ١١/٩ ، تفسير أبي السعود ٢٥١/٣.
(٢) انظر التحرير والتنوير ١٢/٩، انظر تفسير أبي السعود ٢٥١/٣.

الملأ المذكور قبله، لقصد زيادة ذم الملأ بوصف الكفر، كما ذمَّ فيما سبق بوصف الاستكبار.

"والخسران" مستعارٌ لحصول الضر من حيث أريد النفع، والمراد به هنا التحذير من أضرارٍ تحصل لهم في الدنيا من جراء غضب ألهتهم عليهم.(١)

****

قال تعالى : فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ" {الأعراف:٩١}

قوله: " فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ" وهى الزلزلة الشديدة،"والفاء" للتعقيب، أي: كان أخذُ الرجفة إياهم عقب قولهم لقومهم ما قالوا، فأسند هلاكهم إلى السبب القريب.(٢)

****

قال تعالى:" الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ" {الأعراف : ٩٢}

جملة :" الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا" مستأنفة ابتدائية، والتعريف بالموصولية للإيماء إلى وجه بناء الخبر، وهو أن اضمحلالهم وانقطاع دابرهم كان جزاء لهم على تكذيبهم شعيبًا."(٣)

في قوله تعالى : " كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا" قولان :

أحدهما: يقال غني القوم في دارهم إذا طال مقامهم فيها.

ثانيهما: المنازل التى كان بها أهلوها، واحدها مغنى .

وعلى التفسرين شبه حال هؤلاء المكذبين بحال من لم يكن قط في تلك الديار.(٤)

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٣/٩.
(٢) انظر مفاتيح الغيب ٢٠٤/١٣، التحرير والتنوير ١٣/٩، تفسير أبي السعود ٢٥٢/٣.
(٣) التحرير والتنوير ١٣/٩.
(٤) انظر مفاتيح الغيب ٢٠٤/١٣ وما بعدها.

وقيل معنى: " كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا" تشبيه حالة استيصالهم وعفاء آثارهم بحال من لم تسبق لهم حياة، يقال: غني بالمكان كرضي أقام، ولذلك سُمي مكان القوم مغنى.

ولم يبق شيءٌ، أو بقي شيءٌ قليلٌ، فهذا هو وجه التشبيه".(١)

وقوله تعالى:" الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ" "استئناف آخر لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الأخير وإعادة الموصول والصلة كما هى لزيادة التقرير والإيذان بأن ما ذكر في حيز الصلة هو الذي استوجب العقوبتين".(٢)

قال الزمخشري:" وفي هذا الاستئناف والابتداء وهذا التكرير، مبالغة في رد مقالة الملأ لأشياعهم، وتسفيه لرأيهم، واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم"(٣)

"والتكرير لقوله: " الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا" للتعديد وإيقاظ السامعين، وهم مشركَوا العرب، ليتقوا عاقبة أمثالهم في الشرك والتكذيب على طريقة التعريض.

وضمير الفصل في قوله: " كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ"" يفيد القصر، وهو قصرٌ إضافيٌّ، أي دون الذين اتبعوا شعيبًا، وذلك لإظهار سفه قول الملأ للعامَّة " لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون " توقيفًا للمعتبرين بهم على تهافت أقوالهم وسفاهة رأيهم، وتحذيرًا لأمثالهم من الوقوع في ذلك الضلال"(٤)

****

(١) انظر التحرير والتنوير ١٤/٩.

(٢) تفسير أبي السعود ٢٥٢/٣، انظر فتح البيان في مقاصد القرآن ٤١٣/٤، انظر البحر المحيط ١١٣/٥، انظر مفاتيح الغيب ٢٠٥/١٣.

(٣) الكشاف ١٠٣/٢.

(٤) التحرير والتنوير ١٤/٩.

قال تعالى: " فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ" {الأعراف: ٩٣}

نداؤه قومه في قوله " يَا قَوْمِ" نداء تحسر و تبرئ من عملهم.

وجاء بالاستفهام الإنكاري في قوله: " فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ" مخاطبًا نفسه على طريقة التجريد، إذ خطر له خاطر الحزن عليهم فدفعه عن نفسه بأنهم لا يستحقون أن يؤسف عليهم، لأنهم اختاروا ذلك لأنفسهم"[١]

والفاء في قوله: " فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ" للتفريع على قوله: " لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ" فرع الاستفهام الإنكاريّ على ذلك؛ لأنه أبلغهم ونصح لهم وأعرضوا عنه، فقد استحقوا غضب من يغضبٌ لله، وهو الرسول، ويرى استحقاقهم العقاب فكيف يحزن عليهم لما أصابهم من العقوبة.[٢]

وهكذا نرى أن شعيبًا–عليه السلام – قد جادل قومه بالتي هي أحسن ،وحاورهم وناقشهم بأسلوب جمع آلوانًا من الهدايات ،ووضع كل كلمة قالها لهم في الموضع الذي يناسبها ، وخاطبهم بأحكم منطق وأبلغ بيان ،ولكنهم قابلوا كل ذلك بالكلام القبيح ،وبالتطاول والغرور،وبالتهديد السافر، والوعيد الظاهر،فكانت عاقبتهم الخسران والبوار .[٣]

****

(١) المرجع السابق ١٥/٩.
(٢) البحر المحيط ١٥/٩، انظر مفاتيح الغيب ٢٠٦/١٣.
(٣) ادب الحوار ١٦٣.

من أنباء أهل القرى

بعد أن عرض الحق – سبحانه وتعالى – مواقف آدم وزوجه في الجنة ، ومواقف إبليس معهما، ومواقف أصحاب الأعراف، قص علينا قصص الأنبياء حين أرسلهم إلى أقوامهم، فمن كذب بالرسل أخذه الله أخذ عزيز مقتدر بواقع يشهده الجميع ؛ فذكر نوحًا مع قومه، وذكر عادًا وأخاهم هودًا، وذكر ثمود وأخاهم صالحًا، ومدين وأخاهم شعيبًا، وقوم لوط وسيدنا لوطًا، وبين ما حدث للمؤمنين بالنجاة، وما حدث للكافرين بالإذلال والهلاك، يوضح الحق سبحانه وتعالى: أنني آخذ الناس بالبأساء والضراْء لعلهم يتضرعون.(١)

قال تعالى:" وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ(٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(٩٥) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ(٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ(٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(١٠٠) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ(١٠٢) " {الأعراف: ٩٤-١٠٢}

(١) تفسير الشعراوي ٤٢٥٥/٥٣ بتصرف.

قوله تعالى:" وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ" لما فصل الله سبحانه وتعالى أحوال بعض الأنبياء مع اممهم وهم المذكرون سابقًا، أجمل حال سائر الأمم المرسل إليها.(١)

" وعطفت الواو جملة " وَمَا أَرْسَلْنَا " على جملة " وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا" {الأعراف: ٨٥}، عطف الأعم على الأخص، لأن ما ذكر من القصص ابتداء من قوله تعالى:" لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ" {الأعراف: ٥٩}، كلُّهُ القصد منه العبرة بالأمم الخالية موعظة لكفار العرب، فلما تلا عليهم قصص خمس أُممٍ جاء الآن بحكم كُلّي يعمُّ سائر الأمم المكذبة على طريقة قياس التمثيل، أو قياس الاستقراء الناقص، وهو أشهر قياسٍ يسلك في المقامات الخطابية، وهذه الجمل إلى قوله:" ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى" {الأعراف:١٠٣}، كالمعترضة بين القصص، للتنبيه على موقع الموعظة، وذلك هو المقصود من تلك القصص، فهو اعتراض ببيان المقصود من الكلام، وهذا كثير الوقوع في اعتراض الكلام".(٢)

وقوله تعالى:" مِنْ نَبِيٍّ" فيه حذف وإضمار، والتقدير: من نبي فكذب أو كذبه أهلها، إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء.(٣)

فقد وقع في الكلام إيجاز حذفٍ دل عليه قوله:" لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ" فإنه يدل على أنهم لم يضرعوا قبل الأخذ بالبأساء والضرَّاء، فالتقدير: وما أرسلنا في قرية من نبيء إلا كذبه أهل القرية فخوفناهم لعلهم يَذِلُّون لله ويتركون العناد.

والأخذ: هنا مجاز في التناول والإصابة بالمكروه الذي لا يستطاع دفعه.

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن ٤١٧/٤، انظر تفسير أبي السعود ٢٥٢/٣.

(٢) التحرير والتنوير ١٦/٩.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٠٦/١٣، انظر تفسير أبي السعود ٢٥٢/٣، انظر تفسير الثعلبي ٢٦٤/٤.

وقوله تعالى:" ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ" أي مكان الحال السيئة من البأساء والضراء الحال الحسنة من السراء والنعمة، وفي لفظ "مكان" إشعار بتمكن الباساء منهم كأنه صار للشدة عندهم مكان".

وهو منصوب على الظرفية مجازًا، أي: بدلناهم حسنة في مكان السيئة.(١)

وقوله: "حتى عفوا" كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم ،" وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء" فقالوا: هذه عادة الدهر، يعاقب في الناس بين الضرّاء والسرّاء، وقد مس آباءنا نحو ذلك، وما هو بإبتلاء من الله لعباده.(٢)

وبين لفظ "الحسنة والسيئة طباق، وكذلك بين لفظ "الضراء والسراء" ، والطباق يؤكد المعنى ويقويه.

وقوله تعالى: " فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً" الفاء للتعقيب، والأخذ هنا بمعنى الهلاك.

وقوله: " وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ" أي: أخذهم فجأة من غير شعور منهم، والحكمة في حكاية هذا المعنى أن يحصل الاعتبار لمن سمع هذه القصة وعرفها.(٣)

****

قال تعالى: " وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" {الأعراف: ٩٦}

والمعنى: أنهم لو كانوا ممن سبق في علم الله أنهم يتلبسون بالإيمان بما جاءت به الأنبياء، وبالطاعات التي هى ثمرة الإيمان ليتيسر لهم من بركات السماء، ولكن كانوا ممن سبق في علمه أنهم يكذبون الأنبياء فيؤخذون باجترامهم.

---

(١) التحرير والتنوير ١٧/٩. انظر البحر المحيط ٥/ ١١٨.

(٢) انظر الكشاف ١٠٤/٢-١٠٥.

(٣) انظر التحرير والتنوير ٢٠/٩ ، الكشاف ١٠٥/٢، مفاتيح الغيب ٢٠٨/١٣.

فلما بين في الآية الأولى أن الذين عصوا وتمردوا أخذهم الله بغتة، بين في هذه الآيه أنهم لو أطاعوا لفتح الله عليهم أبواب الخيرات.(١)

وقوله تعالى: " لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ" فقوله: "بركات" استعارة مكنية، حيث شبه البركات بالأبواب، ثم أدعى أن المشبه من جنس المشبه به، واستعير الأبواب للبركات ثم حذف الأبواب ورمز لها بإثبات شيء من لوازمها وهو الفتح وهو المشبه على سبيل الاستعارة المكنية.

قال ابن عاشور: والفتح": ازالة حجر شيئًا حاجز عن الدخول إلى مكان، والفتح هنا استعارة للتمكين، وتعدية فعل الفتح إلى البركات هنا استعارة مكنية، بتشبيه البركات بالبيوت في الانتفاع بما تحتويه، فهنا استعارتان مكنية وتبعية."(٢)

قال الزمخشري: "فإن قلت: ما معنى فتح البركات عليهم؟ قلت: تيسيرها عليهم كما ييسر أمر الأبواب المستغلقة بفتحها".(٣)

قال تعالى:" فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" المراد به أخذ الاستئصال والباء للسببية أي بسبب ما كسبوه من الكفر والعصيان.(٤)

****

قال تعالى:" أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ" {الأعراف: ٩٧-٩٩}

---

(١) البحر المحيط ٥ /١١٩ ، انظر مفاتيح الغيب ٢٠٨/١٣.
(٢) التحرير والتنوير ٢١/٩.
(٣) الكشاف ١٠٥/٢.
(٤) التحرير والتنوير ٢٢/٩.

قوله تعالى:" أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى" أي القرى المذكورة على وضع المظهر موضع المضمر، للإيذان بأن مدار التوبيخ آمن كل طائفة ما أتاهم من البأس لا آمن مجموع الأمم.

والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه لا لإنكار الوقوع ونفيه، والفاء للعطف على " فَأَخَذْنَاهُمْ" وما بينهما اعتراض توسط بينهما للمسارعة إلى بيان أن الأخذ المذكور من ما كسبته أيديهم، والمعنى أبعد ذلك الأخذ آمن أهل القرى.(١)

وأسلوب الاستفهام في قوله " أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى" الغرض منه التوبيخ والإنكار والوعيد للكافرين المعاصرين للرسول – صلى الله عليه وسلم– أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك.

وقوله تعالى: " أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى" إنكار بعد إنكار للمبالغة في التوبيخ الشديد.(٢)

قال الزمخشري: "الفاء والواو في "أَفَأَمِنَ" و"أَوَأَمِنَ" حرفا عطف دخلت عليهما همزة الإنكار، فإن قلت: ما المعطوف عليه؟ ولما عطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو؟ قلت: المعطوف عليه قوله " فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً" وقوله: "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى " إلى " يَكْسِبُونَ" وقع اعتراضًا بين المعطوف والمعطوف عليه، وإنما عطفت بالفاء لأن المعنى: فعلوا وصنعوا، فأخذناهم بغتة أبعد ذلك آمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتًا وآمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى؟"(٣)

وقوله: "وَهُمْ يَلْعَبُونَ" أي:" في حال الغفلة والإعراض والاشتغال بما لا يجدي كأنهم يلعبون.

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٢٥٣/٣، انظر فتح البيان في مقاصد القرآن ٤١٧/٤.

(٢) انظر البحر المحيط ١٢٠/٥ ، تفسير أبي السعود ٢٥٣/٣، فتح البيان في مقاصد القرآن ٤١٧/٤.

(٣) الكشاف ١٠٥/٢.

وجاء " نَائِمُونَ" باسم الفاعل لأنها حالة ثبوت واستقرار للنائمين، وجاء " يَلْعَبُونَ" بالمضارع لأنهم مشتغلون بأفعال متجددة شيئًا فشيئًا في ذلك الوقت".(١)

ومن الإطناب قوله تعالى:" أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى" تكررت الجملة والغرض منها الوعيد والإنذار.

ومن وضع المظهر موضع المضمر قوله تعالى :" أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى"

"حيث تكرر لفظ "أَهْلُ الْقُرَى" لما في ذلك من التسميع والإبلاغ والتهديد والوعيد بالسامع ما لا يكون في الضمير لو جاء: "أو آمنوا" فإنه متى قصد التفخيم والتعظيم والتهويل جيء بالاسم الظاهر."(٢)

وقوله تعالى: "أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ" الاستفهام للتقريع والتوبيخ، وإنكار ما هم عليه من أمان ما لم يؤمن من مكر الله بهم، وعقوبته لهم، في تكرير هذا الاستفهام زيادة تقرير لإنكاره ما أنكره عليهم.(٣)

وجاء العطف بالفاء وإسناد الفعل إلى الضمير؛ لأن الجملة المعطوفة تكريرُ لقوله: "أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى" " أَوَأَمِنَ" وتأكيد لمضمون ذلك فناسب إعادة الجملة مصحوبة بالفاء.

ومكر الله: استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر، ولاستدراجه.(٤)

"والمكر حقيقته: فعل يقصد به ضرٌّ في أحدٍ في هيئة تخفي، أو هيئة يحسبها منفعة.

---

(١) البحر المحيط ١٢٠/٥.
(٢) المرجع السابق ١٢٠/٥.
(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن ٥٤١٨/٤ انظر تفسير أبي السعود ٢٥٤/٣.
(٤) الكشاف ١٠٥/٢، انظر البحر المحيط ١٢١/٥، انظر تفسير أبي السعود ٢٥٤/٣، تفسير البيضاوي ٢٥/٣.

وهو هنا استعارة للإمهال والإنعام، في حال الإنعام وفي حال الإمهال، فهى استعارة تمثيلية، حيث شبه حال الإنعام مع الامهال وتعقيبه بالانتقام بحال المكر".(١)

وقوله تعالى:" فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ" "كرر المكر مضافًا إلى الله تحقيقًا لوقوع جزاء المكر بهم."(٢)

وقوله تعالى:" فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ" مترتب ومتفرع عن التعجيب في قوله :

" أفامنوا مكر الله " لأن المقصود منه تفريع أن أهل القرى المذكورين خاسرون، لثبوت أنهم أمنوا مكر الله، والتقدير: أفأمنوا مكر الله فهم قوم خاسرون، وإنما صيغ هذا التفريع بصيغةٍ تعمُّ المخبر عنهم وغيرهم، ليجري مجرى المثل ويصير تذييلًا للكلام.

والخسران هو إضاعة التاجر رأس ماله بسوء تصرَّفه، وهو هنا استعارة تمثيلية، حيث شبه حال أهل القرى وإضاعة ما فيه نفعهم، بسوء اعتقادهم، بحال التاجر الذي أضاع رأس ماله بسوء تصرُّفه، لأنهم باطمئنانهم إلى السلامة الحاضرة، وإعراضهم عن التفكر فيما يعقبها من الآخذ الشبيه بفعل الماكر، قد خسروا الانتفاع بعقولهم وخسروا أنفسهم.(٣)

****

قال تعالى: " أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ" {الأعراف: ١٠٠}

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/٩.

(٢) البحر المحيط ١٢١/٥.

(٣) التحرير والتنوير ٢٤/٩ بتصرف.

فقوله: " أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ" عطفت على جملة: " أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى" {الأعراف:٩٧} لاشتراك مضمون الجملتين في الاستفهام التعجيبي، فانتقل عن التعجيب من حال الذين مضوا إلى التعجيب من حال الأمة الحاضرة، وهى الأمةُ العربية الذين ورثوا ديار الأمم الماضية فسكنوها. والاستفهام في قوله: " أَوَلَمْ يَهْدِ" مستعمل في التعجيب ، تعجيبًا من شدة ضلالتهم، إذ عدموا الاهتداء والاتعاظ بحال من قبلهم من الأمم، ونسوا أن الله قادر على استئصالهم إذا شاء.(١)

****

قال تعالى:" تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ" {الأعراف: ١٠١}

" لما تكرر ذكر القرى التي كذب أهلها رسل الله بالتعيين وبالتعميم، صارت للسامعين كالحاضرة المشاهدة الصالحة لأن يشار إليها، فجاء اسم الإشارة لزيادة إحضارها في أذهان السامعين من قوم محمد – صلى الله عليه وسلم –، ليعتبروا حالهم بحال أهل القرى، فيروا أنهم سواء فيفيئوا إلى الحق."(٢)

واسم الإشارة "تلك" مبتدأ أشار بها إلى ما بعدها، والقرى خبرها، أي: التي أهلكناها وهى: قوم نوح وهود وثمود ولوط وصالح وشعيب.(٣)

قال ابن عاشور:" والقرى يجوز أن تكون خبرًا عن اسم الإشارة، لأن استحضار القرى في الذهن بحيث صارت كالمشاهد للسامع، فكانت الإشارة إليها إشارة عبرةٍ بحالها.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/٩.
(٢) المرجع السابق ٢٩/٩.
(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن ٤١/٤، انظر تفسير أبي السعود ٢٥٥/٣.

والمراد بالقرى وضمير أبنائها: أهلها، كما دل عليه الضمير في قوله: " رُسُلُهُمْ".(١)

"وجاءت الإشارة بتلك إشارة إلى بعد هلاكها وتقادمه، وفي الإخبار بالقرى معنى التعظيم لمهلكها.(٢)

وقوله تعالى: " نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا" صيغة المضارع للإيذان بعدم إنقضاء القصة بعد، و"مِنْ" للتبعيض، أي: بعض أخبارها التي فيها عظة وتذكير.(٣)

وجملة: " وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ" عطف على جملة: " تِلْكَ الْقُرَى" لمناسبة ما في كلتا الجملتين من قصد التنظير بحال المكذبين بمحمد –صلى الله عليه وسلم–.

وجمع البينات يشير إلى تكرر البينات مع كل رسول، والبينات: الدلائل الدالة على الصدق."(٤)

وقوله تعالى: " فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا" عند مجيء الرسل بالبينات، واللام لتأكيد النفي وأن الإيمان كان منافيًا لحالهم في التصميم على الكفر، فاللام أفادت المبالغة في النفي.(٥)

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٩ وما بعدها.
(٢) البحر المحيط ١٢٤/٥.
(٣) تفسير أبي السعود ٢٥٥/٣.
(٤) التحرير والتنوير ٣٠/٩.
(٥) الكشاف ١٠٧/٢ بتصرف، وانظر فتح البيان في مقاصد القرآن ٤١٩/٤.

وقوله تعالى:" فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ" المعنى:" ما أفادتهم البينات أن يؤمنوا بشيء كان بدر منهم التكذيب به في ابتداء الدعوة، فالمضاف المحذوف الذي دل عليه بناء "قبل" على الضم تقديره: من قبل مجيء البينات."(١)

وقوله تعالى : " كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ" فقوله: كذلك أي مثل ذلك الطبع الشديد المحكم "يطبع الله على قلوب الكافرين" أي من المذكورين وغيرهم، فلا يكاد يؤثر فيها الآيات والنذر، وفيه تحذير للسامعين ، وإظهار الاسم الجليل بطريق الإلتفات لتربية المهابة وإدخال الروعة."(٢)

"وإظهار المسند إليه في جملة " يَطْبَعُ اللّهُ" دون الإضمار: لما في إسناد الطبع إلى الاسم العلم من صراحة التنبيه على أنه طبعٌ رهيب، لا يغادر للهدى منفذًا إلى قلوبهم، ولهذا اختير له الفعل المضارع الدال على استمرار الختم وتجدده."(٣)

قال تعالى:" وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ" {الأعراف: ١٠٢}

أي: ما وجدنا لأكثر الناس من وفاء للعهد بل وجدناهم خارجين عن الطاعة والامتثال."(٤)

"والوجدان" في الموضعين مجاز في العلم، فصار من أفعال القلوب، ونفيه في الأول كناية عن إنتفاء العهد بالمعنى المقصود، أي وفائه.

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٣١/٩.
(٢) تفسير أبي السعود ٢٥٥/٣.
(٣) التحرير والتنوير ٣٢/٩.
(٤) صفوة التفاسير ٤٦٢/٩.

وقوله: " وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ" إخبار بأن عدم الوفاء بالعهد من أكثرهم كان منهم عن عمدٍ ونكثٍ، ولكون ذلك معنى زائدًا على ما في الجملة التي قبلها عطفت ولم تجعل تأكيدًا للتي قبلها أو بيانًا.

"وإنْ" مخففة من الثقيلة، وبعدها مبتدأ محذوف هو ضمير الشأن، والجملة خبر عنه، تنويهًا بشأن هذا الخبر ليعلمه السامعون.(١)

(١) انظر التحرير والتنوير ٩/٣٢-٣٣.

الخاتمة

مما سبق نستطيع أن نتبين بلاغة الحوار من خلال هذه المحاورات التي وردت في سورة الأعراف بين الرسل -صلى الله عليهم وسلم- وبين أقوامهم، والمحاورات التي دارت بين الله -عز وجل- وبين آدم وإبليس، والمحاورات بين أهل الجنة والنار وأصحاب الأعراف.

فقد وجدنا أن الحوار في السورة الكريمة جاء في موضعه كاشفًا عن أسراره البلاغية، فقد تعددت أساليب الحوار، فتارة تأتي بأسلوب القصر، وتارة أخرى تأتي بالتوكيدات للمبالغة وللتأكيد على قضايا معينة.

ومن تنوع الأساليب في الحوار ما جاءت فيه الجمل من خبرية، وإنشائية، للتقريع والتوبيخ، والترهيب والترغيب.

وجاء فيه أيضًا على حسب المقام في الموضوع والمعنى، التنكير والتعريف، والفصل بالاستئناف البياني على طريقة الفصل في المحاورات، والفصل والوصل، والإظهار في مقام الإضمار، والاستعارة والكناية.... إلخ من الفنون البلاغية التي تبرز الإعجاز البلاغي في التراكيب والتصوير، وتزيين المعنى واللفظ، وهذه من براعة النظم القرآني في المحاورات.

ونسأل الله -تعالى- أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتنا يوم القيامة، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. أدب الحوار في الإسلام، د محمد سيد طنطاوي ط الثانية -١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، للعلامة أبي السعود، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣. الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، ط صبيح ١٣٠٢هـ.

٤. البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، تحقيق، صدقى محمد جميل - دار الفكر بيروت- ط ١٤٢٠هـ.

٥. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، المطبعة النموذجية.

٦. التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، ط الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

٧. التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب، ط دار الشروق.

٨. تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق أ/ محمد عبد الرحمن المرعشي، دار احياء التراث العربي – بيروت ط الأولى ١٤١٨م.

٩. تفسير الشعراوي، خواطر فضيلة الشيخ محمد الشعراوي، ط دار اخبار اليوم.

١٠. التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة عبد الرحمن، دار المعارف القاهرة ط ٧.

١١. درج الدرر في تفسير الآي والسور، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، تحقيق، طلعت صلاح الفرحان، دار الفكر – عمان – الأردن، ظ الأولى ١٤٣٠ – ٢٠٠٩م.

١٢. روح البيان، اسماعيل حقي الاستنبولي، دار الفكر بيروت.

١٣. روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني للألوسي، ط دار احياء التراث العربي بيروت.

١٤. صفوة التفاسير، محمد على الصابوني، دار الرشيد، سوريا، حلب.

١٥. فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق الحسيني، المكتبة العصرية للطباعة والنشر –صيدا– بيروت ط ١٤١٢هـ –١١٩٢م.

١٦. الكشاف، للامام الزمخشري، ط الثانية، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ١٣٧٣هـ – ١٩٥٣م.

١٧. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد الثعلبي، دار إحياء التراث العربي –بيروت– لبنان، ط الأولى ١٤٢٢هـ–٢٠٠٢م.

١٨. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤٢٢هـ.

١٩. مفاتيح الغيب، للرازي، ط دار الغد العربي، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ–١٩٩٢م.

٢٠. مفتاح العلوم للسكاكي، دار الكتب العلمية – بيروت– لبنان.

٢١. معاني التراكيب، د/ عبد الفتاح لاشين، ط دار الكتاب الجامعي.

٢٢. مواهب الفتاح، لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التلخيص ط دار السرور، بيروت– لبنان.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١.	المقدمة	٦٨١٨
٢.	التمهيد	٦٨٢٠
٣.	الفصل الأول: (حوار بين الخالق -عز وجل- وبعض مخلوقاته)	٦٨٢١
٤.	١. حوار بين الله -سبحانه وتعالى- وإبليس	٦٨٢١
٥.	٢. حوار بين الله -سبحانه وتعالى وآدم -عليه السلام- وإبليس .	٦٨٣٢
٦.	الفصل الثاني: (حوار بين الأخيار والأشرار)	٦٨٤١
٧.	١. حوار بين أصحاب الجنة وأصحاب النار	٦٨٤١
٨.	٢. حوار بين أصحاب الأعراف وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار	٦٨٤٩
٩.	٣. حوار بين أصحاب النار وأصحاب الجنة	٦٨٥٤
١٠.	الفصل الثالث: (حوار بين الرسل -عليهم السلام- وبين أقوامهم)	٦٨٥٧
١١.	حوار بين نوح -عليه السلام- وقومه	٦٨٥٧
١٢.	حوار بين هود -عليه السلام- وقومه	٦٨٦٤
١٣.	حوار بين صالح -عليه السلام- وقومه	٦٨٧٦
١٤.	حوار بين لوط -عليه السلام- وقومه	٦٨٨٥
١٥.	حوار بين شعيب -عليه السلام- وقومه	٦٨٨٩
١٦.	أنباء أهل القرى	٦٩٠٢
١٧.	الخاتمة	٦٩١٣
١٨.	فهرس المصادر والمراجع	٦٩١٤
١٩.	فهرس الموضوعات	٦٩١٦